دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الزنجية في الفكر السياسي
المصدر:	مجلة العلوم القانونية والاقتصادية
الناشر:	جامعة عين شمس - كلية الحقوق
المؤلف الرئيسي:	ربيع، محمد محمود
المجلد/العدد:	مج 14, ع 2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1972
الشهر:	يوليو
الصفحات:	507 - 555
رقم MD:	285106
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo, EcoLink
مواضيع:	الانفتاح الحضاري، الزنوج، التفرقة العنصرية، حقوق الإنسان، الزنجية، الثقافة الأفريقية، حركات التحرر الافريقية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/285106

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الزنجيـــة فى الفـكر السياسى(*)

للدكتور محمد محمود ربيع(**)

فكرة الزنجيـــة

أولا ـ الجـذور الفكرية :

الزنجية Négritude شأنها فى ذلك شأن النظريات والأفكار الأخرى مثل الشخصية الافريقية African Personality والوحدة الافريقية Pan-Africanism ترجع كلها الى مستهل القرن العشرين حيث بدأت يقظة الزنوج فى أنحاء متفرقة من العـالم نتيجة ازدياد القهر الاستعمارى الذى يتعرضـون له وانتشـار الأيديولوجيات الاشتراكية بدرجاتها المتفاوتة والتى تنادى بتحرير الانسـان اقتصاديا وسياسيا .

وقد بدأ أول تعبير منظم عن هذه اليقظة عام ١٩١٤ فى جمايكا[١] بجزر الهند

(*) يود الكاتب أن يعبر عن شكره وتقديره للدكتور عز الدين فودة أستاذ المنظمات الدولية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية لتزويده بأحدث المراجع فى الموضوع بعد حضوره مؤتمر داكار فى أبريل ١٩٧١

(**) من مؤلفاته كتاب النظرية السياسية لابن خلدون (بالانجليزية) ، وكتاب أزمة الفكر الصهيونى المعاصر . ومن بحوثه المنشورة : الاقليمية والعالمية فى الفكر السياسى (بالانجليزية) ، منهج ابن خلدون فى علم العمران ، الجوانب التنظيمية فى المؤتمرات الدولية ، الديمقراطية والحزب الواحد فى افريقيا ـ نحو مرحلة جديدة .

(١) يرى البعض أن يقظة الزنوج ترجع الى تاريخ سابق بكثير على بداية القرن العشرين . ففى ١٧٨٨ ناقش بعض الزنوج الأحرار فى العالم الجديد امكانية رحيلهم الى افريقيا وفى ١٨١٥ قام القبطان الأسـود بول كافى بنقل عـدد من الزنوج الى سيراليون . وفى ١٨١٦ تأسست جمعية الاستعمار الأمريكية . ثم بدأت حركة نقل المهاجرين الى ليبيريا بعد تأسيس شركة الترحيل الليبيرية المساهمة فى جنوب كارولينـا عام ١٨٧٧ . وظهرت الرغبة فى الاسـتقلال عن الدول الاستعمارية المسـيطرة حتى فى ميـدان العقيدة الدينيـة حيث أعلن ادوارد فيلموث بلايدن عام ١٨٩١ عن انشاء أول كنيسـة افريقية مستقلة . وفى ١٨٩٧ كون د. البرت=

الغربية على يد أحد الزنوج وهو ماركوس أوريليوس جارفى الذى أسس حركة باسم الاتحاد العالمى لتقدم الزنوج.ثم انتشرت الحركة بعدذلك بسنتين فى الولايات المتحدة حيث حظت باهتمام كبير من جانب المثقفين والزعماء الزنوج ، بينما قوبلت بقلق واضح من قبل الأمريكيين البيض وخاصة بسبب الخط المتطرف والهجوم المستمر على البيض والمرارة التى كانت تعكسها صحيفة « العالم الزنجى » التى يصدرها جارفى .

ورغم مشاعر الاستخفاف التى كان جارفى يتعرض لها أحيانا من قبل المثقفين الزنوج فى الولايات المتحدة فقد اتسعت الحركة وزاد عدد أعضائها ونمت مدخراتها بشكل سمح لها بالقيام ببعض المشروعات الاقتصادية وأهمها شراء سفن تجارية وافتتاح خط النجمة السوداء الملاحى . وقد ازداد قلق الحكومة الأمريكية والحكومات الاستعمارية الأخرى فى أوروبا بشكل خاص بسبب الشعارات التى رفعتها الحركة مثل « العودة الى أفريقيا » ، « طرد جميع البيض المغتصبين منها » مما دفع الحكومة الأمريكية الى حل حركته وحبسه ثم نفيه كأجنبى غير مرغوب فيه .

لم تؤد هذه الاجراءات الى القضاء على دعوة جارفى أو على يقظة الزنوج . ويعترف الرئيس الغانى الراحل كوامى نكروما فى مؤلفه « أوتوبيوجرافى » أنه من بين كافة الكتب التى قرأها فان أكثرها تأثيرا فيه واثارة لحماسته كان كتاب « فلسفة وآراء ماركوس جارفى »(٢) .

كانت تلك هى الظروف التى اكتنفت حركة انبعاث الزنوج مع ما صاحبها من آراء متضاربة حول أفضل السبل لتحريرهم كما ظهر فى المساجلات بين جارفى ودى بوا وبادمور ومن جاء بعدهم من المفكرين وكما ظهر أيضا فى المؤتمرات

= ثورن مؤسسة فى جزر الهند الغربية أساها مشروع الاستعمار الافريقى . انظر فى ذلك :

Colin Legum, Pan-Africanism, A Short Political Guide, New York 1965, footnote p. 26 ; Abiola Irele, « Négritude et African Personality », Symposium on Négritude, Dakar, Senegal, 12 - 17 April 1971 (hereunder referred to as Symposium), pp. 14 ff.

(٢) C. Legum, Pan-Africanism, op. cit., pp. 25, 26 ; Chancellor Williams, « Pan-Asiatic and Pan-African Movements », in : Joseph S. Roucek, ed., Contemporary Pilitical Ideologies, New Jersey 1961, pp. 226 - 228.

الستة التى عقدوها داخل الولايات المتحدة وفى أوروبا . ولا يدخل فى نطاق هذا البحث دراسة تفاصيل تلك الخلافات وأسبابها وانما تجدر الاشارة الى ملاحظتين :

ـ ان كل الآراء والنظريات التى تبحث فى مشاكل ومستقبل الزنوج ظهرت خارج أفريقيا كما أن المثقفين الزنوج من جزر الهند الغربية لعبوا دورا بارزا فى ذلك المجال .

ـ تبلورت تلك الآراء من الناحية السياسية فى عدة نظريات أهمها الشخصية الافريقية ، والوحدة الافريقية . وانتقل محور الدعوة والنشاط السياسيين من العالم الجديد الى بريطانيا حيث تركز نشاط الزعماء الزنوج فى لندن . ومن الناحية الثقافية أصبحت باريس مستقرا لحلقة نشطة من الزعماء الافريقيين الذين عبروا فى فكرة الزنجية ـ بأساليب شعرية ونثرية ـ عن آلامهم واحتجاجهم على الظروف التعسة التى يعانى منها الزنوج فى كل مكان ، ومفاهيمهم لطبيعة المشاكل الثقافية والحضارية التى يواجهونها كعنصر متميز .

ورغم أن المنطلق والأهداف كانت واحدة تقريبا فى البداية الا أن اعتبارات أخرى منها ظروف البيئة المختلفة فى كل من لندن وباريس طبعت كلا من الجماعتين السابقتين بصفات خاصة وساهمت فى زيادة الانقسام بين الزنوج الناطقين بالانجليزية وأقرانهم الناطقين بالفرنسية . وقد ترك هذا الانقسام المبكر بصماته على التطورات اللاحقة فى الدول الافريقية بعد الاستقلال بحيث أنه يمكن أن نلاحظ بوضوح الاختلافات القائمة بين الدول الافريقية الناطقة بالانجليزية وتلك الناطقة بالفرنسية ليس فقط فى موقفها بالنسبة لفكرة الزنجية أو المزاج العام والثقافة وانما أيضا فى السياسات الخارجية ونوع التكتلات الاقتصادية التى تنضم اليها كل مجموعة .

يرتبط اسم الزنجية ولا يزال يرتبط حتى الآن بالصحيفة الثقافية الباريسية المسماة الوجود الافريقى **Présence Africaine** . ولكن الواقع أن الفكرة سبق بحثها فى جريدة ثقافية أخرى هى الدفاع الشرعى **Legitime Defense** التى أنشأها فى بداية الثلاثينات من هذا القرن الشاعر ايتيين ليرو من جزر المارتينيك فى البحر الكاريبى .

ومن خلال تحليل ماركسى لظروف المجتمع فى جزر الهند الغربية اكتشف ليرو أن سكان الكاريبى هم من أحفاد الزنوج الافريقيين الذين استخدموا كعبيد لمدة ثلاثة قرون فى ظروف تشابه تلك الظروف المزرية التى تعيش فيها البروليتاريا. وأكد أن السيريالية هى الوحيدة القادرة على انقاذهم من المحظورات التى تفرضها عليهم التقاليد والوضع الاجتماعى ، وهى القادرة على التعبير عن وحدتهم(٣) .

لقد كانت كل من الماركسية والسيريالية هما النغمتين البارزتين فى الحديث عن الشكل المبكر للزنجية حيث كانت ماركسية من ناحية الديالكتيك وسيريالية من ناحية التعبير الفنى . لكن لم تدم تلك التأثيرات على فكرة الزنجية لمدة طويلة اذ أصبح الماركسيون يمثلون أقلية فى صحيفة الوجود الافريقى بينما اعتبرت السيريالية نظرية لاعلاقة لها بالواقع الزنجى وانما محاولة من السيرياليين الفرنسيين لاستعادة قدراتهم الثورية الخلاقة التى اعتراها الذبول(٤) .

بعد ليرو لمع فى باريس شاعر آخر من المارتينيك أيضا هو ايمى سيزار الذى بدأ حركة جديدة مبنية على فكرته فى الزنجية . وقد بدأت تلك الحركة بقصيدة طويلة عن « العودة الى الوطن » نشرت عام ١٩٣٩ أفصح فيها عن الاتجاه الأساسى الذى أصبح مميزا للزنجية منذ ذلك الحين وهو عدم التهرب من الواقع المر والتصالح مع الذات بمعنى تحقيق وحدة وتماسك الشخصية وقبول حقيقة كونه أسود وعدم احتقار الذات أو الشعور بالخجل نتيجة احتقار الآخرين للونه بل والتحول الى موقف مضاد لذلك تماما وهو التغنى بالصفات الحسنة للجنس الأسود . وبذلك يصير اللون الأسود الذى كان رمزا للرفض ــ سواء من الآخرين أو من الذات ــ مصدرا للفخر (٥) .

تأثرت فكرة الزنجية أيضا وبطريقة غير مباشرة بآراء ونشاط دى بوا وذلك من خلال أعمال حركة النهضة الزنجية فى باريس فى العقد الثالث من

(٣) Leopold Sedar Senghor, ed., Anthologie de la Nouvelle Poésie Négre et Mal. agache, Paris 1948, quoted by C. Legum, Pan-Africanism, op. cit., p. 93.

(٤) Ibid., p. 93.

(٥) Ibid., p. 94 ; Basil Davidson, Which Way Africa ? The Search for a New Society, Middlesex, England 1964, p. 71.

هذا القرن ، وكذلك نشاط ماركوسى جارفى الذىعبرت عنه مجلته الأسبوعية « العالم الزنجى » . لقد كانت هذه المجلة همزة الوصل بين حركة جارفى وبين مؤتمرات الوحدة الافريقية التى أثرت بدورها تأثيرا عميقا على عدد من الزعماء الافريقيين من أمثال كوامى نكروما وجوموكينياتا ونمادى أزيكوى وجالاندو ديوف . حتى التيـــار البروليتارى بين الافريقيين تأثر هو الآخر بآراء دى بوا وجارفى وهو التأثير الذى بدى بوضوح فى صحيفتهم التى كانت تصدر فى باريس تحت اسم « صوت الزنوج »(٦) .

باشر العلماء والفنانون والكتاب الأوروبيون أيضا تأثيرا كبيرا على فكرة الزنجية وخاصة من حيث توعية زعمائها بأصالة القيم الحضارية لأفريقيا واستحالة استبدالها بغـيرها . من هنا كان دور الزنوج الأمريكيين مختلفا عن الزنوج الافريقيين . فهم لم يحرضوا شباب افريقيا الزنوج الدارسين فى أوروبا على أن يتمردوا أخلاقيا وانما أن ينظموا أنفسهم اجتماعيا ان لم يكن سياسيا وأهم من كل شىء أن يخلقوا أعمالا فنيـــة .

لقد ضرب شعراء حركة النهضة الزنجية المثل أمامهم وذلك باظهار امكانية خلق أعمال فنية تعبر عن مسيرة الحركة ، وامكانية انبعاث الحضارة الافريقية الزنجية وتستعها بالاحترام . ولكن يجب ألا يغيب عن الذهن أن الأوضـــاع المختلفة التى كانت تعيشها كل من المجموعتين وبالتالى تباين تجاربهما أدى الى أن تأخذ فكرة الزنجية صورا مختلفة لدى كل منهما(٧) .

بنهاية الحرب العالمية الثانية كانت فكرة الزنجية قد اكتسبت عددا آخر من المثقفين الزنوج الذين وقعـــوا تحت تـــأثير سيزار مثـــل ليوبولد سدار سنجور وديوب من السنغال وروماين من هايتى وليون داماس من جويانا حيث جمعهم الشعور بالمصير المشترك والعداء للاستعمار والرغبة فى اعـــادة تقييم تراثهم الافريقى . وقد ســـاعدت تلك التطورات والمشـــاعر الجديدة لديهم على نمـــو وعيهم بأنفسهم كعنصر زنجى مميز له ثقافته المستقلة(٨) .

(٦) L. S. Senghor, « Problematics of Négritude », Symposium, p. 20.

(٧) Ibid., pp. 23, 24.

(٨) Senghor, ed., Antholohie..., quoted in : Pan-Africanism, op. cit., p. 95.

ثانيـا ـ التعريف بالزنجيـــة :

ما هو مفهوم الزنجية ؟

هل يمكن اعتبارها بمثابة نظرة أو تصور حدسى وعقلانى للحياة وللعـالم Weltanschauung ؟

ما هو الفرق بين مفهومى الزنجية والشخصية الافريقية ؟

الزنجية فكرة ذات مدلول ثقافى أسـاسا وان كان لها مدلولات سياسية واجتماعية أيضا . وهى من الناحية الموضوعية تعنى مجموع القيم الحضـارية ـ الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفنية ـ التى تميز ليس فقط شعوب أفريقيا السوداء وانما أيضا الأقليات السوداء فى أمريكا وحتى فى آسيا والأوقيانوسية ، وان كانت تستخدم أحيانا وعلى وجه التحديد للتعبير عن زنوج أفريقيا . وقد أشار علماء الأجناس والطباع وكذلك علماء الاجتماع الى صلات القرابة الحضـارية بين تلك الجماعات البشرية وخاصـة فى أفريقيـا والتى أطلق على أفرادها اسم « الأثيوبيون » نسبة الى الكلمة اليونانية aïthiopès أى أسـود . (٩)

ومن الناحية الذاتية فان الزنجية تعنى قبول هـذه الحقيقة والدعوة للقيم الحضارية للجنس الأسود وتطعيم تلك القيم اذا لزم الأمر بقيم أجنبية من أجل اثرائها . وبذلك تستطيع الأجيال الجديدة من الزنوج تقديم مساهمتها للحضارة العـالمية .

هكذا تعتبر الزنجية بالنسبة للمؤمنين بها بمثابة نظرة أو تصور حـدسى وعقلانى للحياة وللعالم Weltanschauung . يظهر ذلك من معالجتهم لها بصفتها

---

(٩) ليوبولد سيدار سنجور أسس الافريقانية ، أو الزنجية والعروبة ، محاضرة القيت فى جامعة القاهرة ١٦ فبراير ١٩٦٧ ، ص ٢٠

Senghor, « What is Négritude » ?, a speech delivered at Oxford University in Oct. 1961, reprinted in : Paul E. Sigmund, The Ideologies of the Developing Nations, New York 1963, p. 248 ; Senghor, « Problematics of Négritude », Symposium, 7 ; Abdou Salam Kane, « Penser et agir par nous-mêmes et pour nous en Négro-Africains », in : le Soleil, Dakar, 13 Avril 1971, p. 5.

المنظار الذى يطلون ويقيمون من خلاله المجتمع والعادات والعلاقات داخل الجنس الأسود ثم علاقاته مع السلالات الانسانية الأخرى .

أى أن الزنجية بالنسبة للمؤمنين بها تعنى كل شىء فهى النظرية وهى التعبير عن الأخلاقيات الاجتماعية والسياسية للجنس الأسود وهى كذلك فن وهى أسلوب وفى عبارة واحدة هى المذهب الانسانى للقرن العشرين . ان حركة الزنجية فى أساسها لها رسالة هى اعادة الكرامة للانسان الأسود والأبعاد الكاملة لشخصيته .(١٠)

ان الصفة الغالبة بين كافة الصفات الأخرى المميزة للزنجية هى أنها تأكيد للتضامن بين زنوج العالم . كما أن النهضة الثقافية التى تطبع الزنجية تعتبر عاملا أساسيا فى البحث عن الوحدة الافريقية متى أمكن الحصول على الاستقلال . ويميل المدافعون عن هذه الفكرة الى النظر الى الزنجية أيضا كأساس ثقافى لأيديولوجيتهم السياسية ولأسلوبهم فى حل مشاكل التنمية .(١١)

واجهت تلك التعريفات اعتراضات شتى وخاصة من الزنوج الافريقيين الناطقين بالانجليزية الذين تساءلوا عن سبب اختيار اصطلاح يرتبط باللون على وجه التحديد . وردا على ذلك النقد دافع سنجور عن اختيار لفظ الزنجية بقوله أنه يتمشى مع قوانين اللغة ومع حقائق الصفات والعلاقات الاجتماعية بين السلالات البشرية فى أفريقيا . ففى كل اللغات تقريبا يشير الاصطلاح الدال على حضارة شعب من الشعوب الى الموطن أو السلالة أو حتى لون البشرة . واصطلاحات مثل اللاتينية ، الجرمانية ، الهندية ، الأوروبية ترمز الى سلالات وبلدان . ولكن هناك مسميات أخرى تعبر عن شعوب معينة وفى نفس الوقت تعتبر كناية عن لونها . مثال ذلك كلمة الأثيوبى التى أشرنا اليها وهى من اليونانية وتعنى المحروق أو الأسود ، والسودانى من اللفظ العربى سودان أى أسود ، وتسمية الموريتانى بيضانى من الكلمة العربية أبيض . ومن هنا جاءت التسميات بالأثيوبية والسودانية والبيضانية . والخلاصة التى يريد أن يخرج بها هى

(١٠) Alioune Sene, « Négritude et Politique », Symposium, pp. 2, 3.

(١١) Ibid., pp. 10 - 12.

أنه اذا كان البيض يرون الزنوج سودا فان على هؤلاء أن يتنادوا بهذه الصفة دون أى خجل على الاطلاق بل وحتى بشعور من الفخر .(١٢)

الأهم من ذلك فى رأى سنجور أن هنـاك اختلاف عميق فى المفـهوم بين مصطلحى الشخصية الأفريقية والزنجية . فاصطلاح الشخصية الافريقية الذى يستعمله الزنوج الناطقون بالانجليزية لا يعنى سوى الأفريقانية باللغة الفرنسية Africanité . وهو لفظ يدل على مجموع القيم الحضارية للشعوب الافريقية .

يحاول سنجور تبسيط الأمر فيقول أن تلك الشعوب الافريقية تنتمى الى حضارتين اثنتين على الأقل هما العربية البربرية والزنجية الافريقية فالحضـارة الافريقية والحال كذلك لها وجهان مختلفان متناقضان وان كان أحدهما لا يستطيع أن يعيش دون الآخر . أى أن اصطلاح الشخصية الافريقية اصطلاح عـام وينسحب على القيم التى تعبر عنها كل من الحضارتين ، وعلى هذا الأساس فانه لا يستطيع أن يعبر تعبيرا دقيقا عن الزنجية .(١٣)

ثالثـا ـ الزنجيـــة والعنصرية :

من الطبيعى أن تثير فكرة الزنجية كثيرا من المخـاوف والشكوك حول مغزاها والفلسفة التى تخدمها وما يمكن أن يتمخض عنها من سياسات تؤثر على الأوضـاع السائدة فى أفريقيا ذاتها وعلى مصالح الدول الأخرى المعنية بشئون القـارة .

ونقول أنه من البديهى أن تثير هذه الفكرة المخاوف والشكوك لأن الزنجية تقوم على لون فئـة معينة من البشر وترتبط بسلالة عرقية مميزة مما يثـير فى الأذهان احتمال وجود تشابه بينها وبين الأفكار والفلسفات المماثلة التى تولد الحماس أو تثير التعصب بين جماعات بشرية معينة ضد جماعات أخرى ، وما أسفرت

(١٢) Senghor, « Problematics of Négritude », Symposium, p. 12.

(١٣) Ibid., p. 13 ; cf. Abiola Irele, « Négritude et African Personahty », Symposium, pp. 26, 5, 18-20 ; أسس الافريقانية ، أو الزنجية والعروبة ، مرجع سابق ص ٤ ، ٥٥ ;

عنـه من دمـار ومعاناة لملايين الأبرياء الذين ذهبوا ضحية تلك الفلسـفات تستوى فى ذلك الصهيونية والفاشية والنازية والأپارتهايد .(١٤)

ويقول ماركوس جارفى أنه يؤمن بوجود سلالة سوداء نقية تماما كما يؤمن البيض فى سلالة بيضاء نقيـة . وتعبيرا عن ذلك قام الاتحاد الدولى للنهوض بالزنوج الذى أسسه بتحريض زنوج العـالم الجديد على العودة الى أفريقيا . وقد وجدت هذه الدعوة ترحيبا حارا من العصابة البيضاء المتطرفة الكوكلوكس كلان التى كانت تؤيد هذا الاتجاه لاتفـاقه مع عدائهـا للزنوج . وذهب جارفى فى دعوته الى حد اعلان تكوين امبراطورية زنجية فى نيويورك ثم الى تنصيب نفسه « رئيسا مؤقتـا لامبراطورية عنصرية فى أفريقيـا »(١٥) .

ويعتبر ليوبولد سنجور من المدافعين الواعين عن فكرة الزنجية . وادراكا منـه لخطورة وصمة العنصرية حاول فى كثير من بحوثه وخطبه ابعـاد هـذه الشبهة عن الزنجية بالاكثار من الكلام عن القيم الحضارية التى تمثلها وارتباطها بتـاريخ الزنوج أيام الامبراطوريات المزدهرة فى أفريقيا . « فخلافا للنـازية التى كانت رمزا للعنصرية الأوربيـة ، أرسينا نحو قواعد عنصرية معـادية للعنصرية »(١٦) .

لقد كان سنجور مدركا للأعمال الشديدة التطرف التى قامت بها النازية والكوارث التى جلبتها وهى التى يشـير اليهـا بأنها كانت عبرة لأصحاب فكرة الزنجية وهى التى أعادتهم الى رشدهم . ان الكراهية الشـديدة التى ولدتها النازية بين البشر وانتشـار وسـائل العنف وبحور الدمـاء التى أريقت كل ذلك أدى الى غضب شديد وردود فعل عنيفة . مثل هذه المشاعر والوسـائل يعتبرها سنجور غريبـة على ملكة وسجية الافريقيين وهى حاجتهم الى الحب .

---

(١٤) راجع اشارتنا الى الجذور الفكرية للفلسفات العنصرية المعاصرة فى مؤلفينا: ازمة الفكر الصهيونى المعاصر ، القاهرة ١٩٧١ ص ٩٤ ، ٩٥ ؛
The Political Theory of Ibn Khaldun, Lyden 1967, pp. 60, 61.

(١٥) C. Legum, Pan-Africanism, op. cit., p. 26.

(١٦) Senghor, « What is Négritude » ?, in : The Ideologies of the Developing Nations, op. cit., p. 249.

يقر سنجور بفضل علماء الدراسات الانسانية على أصحاب فكرة الزنجية الذين تعلموا منهم حقيقة هامة وهى استحالة وجود سلالة نقية تماما كما أثبتت البحوث العلمية . فهو فى ذلك يناقض ما ذهب اليه جارفى من التأكيد على وجود عنصر أسود نقى ربما لأن هذا الأخير كان مثالا للزنجى الأمريكى الذى يحمل فى داخله كل العبء الذى يمثله تراث العبودية الذى عانى منه أسلافه الذين خطفوا للعمل فى مزارع السادة البيض سواء على شكل استغلال اقتصادى أو اهانات تمس انسانيتهم . من هنا كانت المرارة الشديدة التى تبدو فى كتابات وتصرفات الزنوج الأمريكيين . مثل هذه التجارب والترسبات لم يعانيها الزنوج الافريقيون أو على الأقل ليس بنفس الدرجة وربما بأشكال أخرى(١٧) .

تضيف تلك الدراسات أن المائتى مليون نسمة فى أفريقيا سيختفون يوما ما كسلالة سوداء وذلك بسبب الامتزاج . ويرد سنجور بأنه اذا كان الزنوج الأفارقة على حق فى احتضان القيم الزنجية وتنمية الطاقات الكامنة فيهم فان ذلك يجب أن يكون من أجل المشاركة فى الاستيعاب الثقافى وبحيث تمثل تلك القيم والطاقات مساهمة الزنوج فى حضارة الانسان(١٨) .

أصبح شائعا فى الكتابات المدافعة عن فكرة الزنجية استعمال عبارة الوعى بالسلالة أو الوعى العنصرى وهو ما أكده سنجور فى أكثر من موضع . ففى اشارة صريحة الى مهرجان الوحدة الافريقية الذى عقد بالجزائر أجمل سنجور الاعتراضات الموجهة الى فكرة الزنجية فى تيارين أساسيين : الأول من جانب بعض الوفود العربية والثانى من بعض الوفود الافريقية الزنجية مثل وفود غينيا والكونجو برازافيل وغيرهما .

لقد اعتبر العرب فكرة الزنجية عاملا من العوامل المؤدية الى زيادة انقسام أفريقيا وتساءلوا : أليس من السلبية الاصرار على عامل اللون فى وقت تسعى فيه

(١٧) Senghor, « Problematics of Négritude », Symposium, p. 26.

(١٨) Sengor, « What is Négritude » ?, op. cit., p. 249.

انقارة نحو تحقيق وحدتها والتجاوز عن الاختلافات العديدة بين شعوبها[١٩]؟ .

يعتب سنجور على العرب اثارة هذه الحجة حيث أنهم هم أنفسهم سبق أن عمقوا هذا الخلاف أولا من خلال حركة النهضة ذات الجذور اللبنانية ثم فى حركة العروبة المعاصرة . وفى رأيه أن تقسيم القارة الافريقية على أساس اللغة هو أمر أكثر ايجابية من تقسيمها على أساس اللون . ثم يدافع عن مؤسسى الزنجية الأوائل على أساس أن أيا منهم لم يصر على عامل اللون وانما على السلالة ؟

لكن الاعتراف بالتركيز على السلالة قد يجر الى الاتهام بالعنصرية . لهذا يستدرك سنجور ويقدم دفعين لابعاد هذه الشبهة . فمن ناحية يقول أن المقصود بالسلالة ليس فقط الصفات الجسمانية وانما أيضا الثقافة بقيمها الحضارية التى طالما تغنى بها المؤمنون بالزنجية . ان الصرخة التى يطلقها شباب الزنوج بأن « الأسود جميل » انما تنبع من المشاعر الحبيسة الناتجة عن اهانات البيض لهم بسبب لون بشرتهم .

ومن ناحية أخرى ، فان التغنى بالصفات والمميزات البدنية هى حقيقة واقعة بالنسبة لكل سلالة وكل شعب حيث ينظر اليها على أساس أنها الصفات والمعيار السليم للجمال . ففى السنغال مثلا تمتدح القصائد الشعبية لقبائل السيريرا العداء « الطويل الأسمر » ، بينما تتغنى أهازيج الحب لدى القبائل الفولانية « بالمحبوبة العذراء ذات اللون الأحمر النحاسى » تماما كما كان الاغريق فى الأزمنة الغابرة يتغنون بآلهتهن ذوات « الأذرع البيضاء » [٢٠] .

لهذه الأسباب يرفض سنجور نقد العرب للزنجية بأنها تزيد انقسام أفريقيا على أساس اختلاف اللون بين الأفارقة شمال وجنوبى الصحراء الكبرى ويرد قائلا بأنهم كزنوج أفريقيين كانوا أول من تكلم عن الأفريقانية ليس بمعناها الذاتى أو انطلاقا من عقدة ما لتمييز الثقافة السوداء ، وانما الافريقانية بمعناها

(١٩) Senghor, « Problematics of Négritude », p. 30.

(٢٠) Ibid., p. 31.

الموضوعى أى الحضارة الافريقية التى يعرفها بأنها ذلك التكافل الجدلى بين شقين لا يستغنى أحدهما عن الآخر وهما العروبة والزنجية . هذا التكافل الجدلى الذى يعتبر من منجزات الانسان الكبرى والذى يرجع الى ما قبل التاريخ هو الذى يشكل فى رأيه القوة الحقيقية للافريقانية(٢١) .

ان المشكلة الحقيقية كما يراها ليست التعارض بين العروبة والزنجية وانما هى التعارض بين هذين التصورين أو الأيديولوجيتين من جانب والأيديولوجيات التى تلهم الأمم الكبيرة حاليا فى أوروبا وآسيا وأمريكا من جانب آخر ويقصد بصفة خاصة الماركسية اللينينية ؟

وعلى أساس هذا المفهوم انتقد سنجور الثوريين العرب فى مهرجان الجزائر لأنهم لم يترددوا فى استبعاد كل من العروبة والزنجية ليس فقط على أساس أنهما من مخلفات الماضى وانما الأخطر من ذلك فى نظره لمقاومتهم الزنجية باعتبارها محاولة « لعنصرة الفكر » أى صبغة بصفات سلالية معينة لجماعة من البشر (٢٢) .

ورغم أننا سنتناول فيما بعد وبالتفصيل الانتقادات المتبادلة بين أتباع كل من الماركسية والزنجية الا أننا سنستكمل هنا بحث دفاع سنجور عن بعض السمات العنصرية التى علقت بالزنجية والتى لجأ الى مقتطفات من ماركس لشرح أسبابها . فبالنسبة للعوامل العنصرية أو السلالية يستشهد سنجور بقول ماركس فى كتابه « رأس المال » أنه يمكن أن نكتشف فى العلاقات المباشرة بين أرباب الأعمال والعمال الأساس الخفى لأى هيكل اجتماعى . ولا يمنع هذا الأساس الاقتصادى أو البناء التحتى ــ بسبب عدد لا يحصى من المؤثرات التجريبية الطبيعية والعنصرية والتاريخية التى تباشر تأثيرها من الخارج ــ من التعبير عن نفسه فى سلسلة لا نهائية من المتغيرات لا يمكن فهمها الا بتحليل نفس هذه الظروف التجريبية .

---

(٢١) Ibid., p. 32.

(٢٢) Ibid., pp. 32, 33.

هنا يكمن تفسير تأثيرات السلالة وبالتالى دورها والتى يمكن تعريفها على أنها وحدة دائمة فى الانسان بين عدة عوامل تعتمد فى وجودها على بعضها البعض وهى عوامل تاريخية وجغرافية وعنصرية(٢٣) .

ولا يقتصر سنجور على الاستشهاد بماركس لتصحيح الانطباع عن السمات العنصرية فى الزنجية وانما يلجأ أيضا الى بعض العلوم الاجتماعية الحديثة مثل علمى السلالات والطباع ليؤكد كذلك على أهمية العوامل العنصرية وتأثيراتها على الوضع الحضارى .

فتطبيقا لقواعد علم السلالات قام علماء الطباع بمد نطاق دراساتهم من الفرد الى السلالة نفسها . وهكذا ظهر علم جديد عرف باسم علم الطباع العنصرية أو السلالية الذى يقوم على أساس الجماعات الطبيعية من البشر ــ شأنها فى ذلك شأن الأفراد بتكويناتهم البيولوجية/النفسية ــ لا يمكن اطلاقا أن تتماثل فى الشعور أو التفكير أو العمل . فكل منها له طريقته الخاصة فى تصور وجودها أو فى تبنى موقف معين تجاه قيم ما . أى أن علم الطباع العنصرية يعتبر وسيلة جديدة لاثبات مدى أصالة كل حضارة بشكل لا يرقى اليه شك(٢٤) .

لم تتعرض فكرة الزنجية للاتهام بالعنصرية من جانب الثوريين العرب والافريقيين الماركسيين فقط وانما واجهت نفس الاتهام أيضا من قبل كتاب زنوج آخرين من جنوب أفريقيا من أمثال حزقيال مفاليلا . لقد رفض هؤلاء الكتاب كلا من فلسفتى الزنجية والأبارتهايد وتبنوا موقفا آخر ينادى بوحدة الثقافة .

تنبع ادانة هؤلاء الكتاب للزنجية من حكمهم عليها بأنها نوع من العنصرية اذ أنها بتشديدها على الاعتبارات القارية أو عامل اللون تخدم المستوطنين البيض الذين ترتكز سياستهم على وضع معكوس لنفس التصور . ويدللون على سلامة ادانتهم بالأشكال المتطرفة التى تأخذها حركات احتجاج الزنوج فى الولايات المتحدة ويسوقون على سبيل المثال حركة المسلمين الزنوج التى يبدو أنها صعدت

(٢٣) Ibid., pp. 41, 42.

(٢٤) Ibid., pp. 42, 43.

شعار « العودة الى أفريقيا » الذى نادى به ماركوس جارفى وأتباعه الى عقيدة متعصبة تؤمن بالتفرد العنصرى للزنوج . « ان الزنجية بالنسبة لنا نحن الذين نعيش فى مجتمعات متعددة السلالات ما هى الا طقوس وثرثرة ثقافية[٢٥] » .

يعتقد مفاليلا أن الفن الافريقى الجديد سينبعث من مادة الحياة نفسها وليس من أى عقدة بالتفرد والتميز أو الاختلاف العنصرى . وهو يبدو فى موقفه هذا نافذ الصبر ازاء تلك الأرواح الهائمة التى تشعر بالوحدة والتى تحاول التوحد عن طريق مجاملة الثقافة الغربية فى كل من باريس ولندن . يدفعه الى ذلك ما يعلمه من التجربة التى يخوضها مواطنوه الافريقيون فى جنوب افريقيا الذين — رغم صراعهم مع الفتات الفقير للثقافة البيضاء التى يسمح بها الاستعمار الاستيطانى — نجحوا فى خلق أعمال فنية معقولة سواء فى الموسيقى أو الرسم بالزيت أو الأدب[٢٦] .

ثم يفاضل بين الفنانين والكتاب الذين يستلهمون الوحى من الزنجية وبين الفنانين من مواطنيه فيلاحظ أن عدد أولئك الكتاب والفنانين الذين لم يكتشفوا بعد لأنهم لازالوا محتجزين فى الخيتو فى المجتمعات المتعددة السلالات والذين لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم أمام الرأى العام العالمى بسبب التعصب العنصرى والحكم الجائر للأقلية البيضاء هم أكثر عددا بكثير من القلة التى تستطيع السفر الى الخارج بل أكثر عددا بالنسبة لافريقيا من أن تركز كلية على تلك القلة .

ان من المنجزات التاريخية التى استطاع الافريقيون فى جنوب أفريقيا تحقيقها هى رفع مبدأ الانسانية غير العنصرى فوق مبدأ الأبارتهايد الذى يدعو الى الغثيان فى تمجيده للتمييز العنصرى . لهذا يقول أن احدى المآسى الكبيرة التى تواجه القارة هى استمرار احتجاز هؤلاء الافريقيين أنفسهم خلف الحدود المغلقة خلال تلك السنوات الحرجة التى تبحث فيها افريقيا عن مستقبل مشترك[٢٧] .

---

(٢٥) Ezekiel Mphahlele, The African Image, London 1962, p. 26, quoted by B. Davidson, Which Way Africa ?, op. cit., pp. 74, 75.

(٢٦) Ibid., p. 75 ; cf. A. Irele, « Négritude et African Personality », Symposium, p. 30.

(٢٧) E. Mphahlele, in : Which Way Africa ?, op. cit., p. 75.

رابعـا ـ الزنجية والليبراليـة :

شرحنا المقصود بالزنجية وقدمنا تعريفا لها من خلال كتابات فلاسفتها وحتى يتسنى فهم العلاقة بين الزنجية والليبرالية يحسن أولا معرفة ما تعنيه الليبرالية كنظرية سياسية معاصرة اذ من البديهيات المسلم بها أن النظريات السياسية تكتسب معان متطورة ـ وأحيانا مختلفة ـ فى كل عصر نتيجة المتطورات الاقتصادية والسياسية التى تطرأ على بنية المجتمع وعلى علاقات القوى فيه .

فمثلا بالنسبة لليبرالية لم يعد مغزاها قاصرا على تلك الأفكار والمبادىء التى أرساها جيريمى بنتام عن نظرية المنفعة وعن الاحساس بالسعادة والألم بصفتهما القوتان الدافعتان للفرد . كما أنها تجاوزت أيضا محاولات جون ستيوارت ميل لاعادة بناء تلك النظرية والتى ضمنها فى كتابه عن « الحرية » ، وفى مقالته « الحكومة التمثيلية » .

يمكن ادراك المفهوم السائد اليوم لليبرالية كنظرية سياسية اذا أدخلنا فى اعتبارنا أن هذا المصطلح يستخدم للتعبير عن معنيين بينهما بعض التطابق أولهما معنى ضيق وذو طبيعة محددة والثانى ذو طبيعة عامة . تعنى الليبرالية فى معناها الضيق وضعا سياسيا وسطا بين الرجعية والاشتراكية يحبذ الوسائل الاصطلاحية فقط وليس الثورية .

واصطلاح الليبرالية بهذا الشكل يلائم نظرة الطبقة الوسطى وليس الأرستقراطية ذات المصلحة فى المحافظة على الأوضاع القائمة ، أو الطبقة العاملة التى تحاول القضاء على الرأسمالية والحلول محلها فى الحكم . ويصف الماركسيون الليبرالية بأنها نظرية سياسية رأسمالية تهدف الى استعادة أساليب أقرب ما تكون الى تقاليد المنافسة التى كانت سائدة فى بداية النظام الرأسمالى .

أما فى معناها العام فان الليبرالية أصبحت تستخدم كناية عن « الديموقراطية » بمفهومها الرأسمالى وضد الشيوعية والفاشية . وعلى المستوى السياسى تعنى الليبرالية المحافظة على المبادىء العامة للحكومة مثل الاقتراع والجمعيات التمثيلية والهيئات التنفيذية المسئولة أمام هيئة الناخبين . ولكنها بشكل عام تعنى تلك

الشرائع السياسية التى تعترف بمبادىء عامة من الفلسفة الاجتماعية أو الأخلاقيات السياسية وبأى أساليب يمكن بها تحقيق ذلك . لهذا يمكن النظر الى الليبرالية على أنها تجسيد لكل ما تعنيه « التقاليد السياسية الغربية »[٢٨] .

على ضوء هذا العرض الموجز للمفهوم المعاصر لليبرالية وخاصة كونها تجسيد أو رمز للأخلاقيات والتقاليد السياسية الغربية نريد أن ندرس العلاقة بينها وبين فكرة الزنجية كما تصورها فلاسفتها وكتابها وما نتج عن هذه العلاقة من تأثيرات ايجابية وسلبية . ومن الجلى أن آراءهم وانطباعاتهم عن الليبرالية تأثرت تأثرا كبيرا بتجاربهم المريرة مع الاستعمار الغربى للقارة وهو ما سنلاحظه فى كافة جوانب العلاقة التى تصوروها بينهما سواء فى حاضرها أو مستقبلها .

وفى نطاق بحثنا هذا يبدو أن أهم جوانب تلك العلاقة تكمن فى ميراث الاستعمار من الناحيتين المادية والمعنوية ، وكذلك فى التأثيرات الحضارية والثقافية المتبادلة من حيث الاعتراف بفضل علماء الغرب والتأكيد على دور أفريقيا الحضارى وخاصة فى الماضى ثم فى رؤى المستقبل التى يفرغ فيها أصحاب فكرة الزنجية تصوراتهم عن مستقبل علاقات الحضارة الزنجية بالعالم الليبرالى .

١ ـ ميراث الاستعمار :

(ا) يتجلى ميراث الاستعمار فى أفريقيا أول ما يتجلى فى المجال الاقتصادى حيث أدى نزح الثروات الوطنية الى أوروبا الى افقار شعوب القارة وتركها فى حالة مزرية تستعصى على أى محاولات حديثة لتعويض التخلف وتحقيق معدلات مرتفعة للتنمية الاقتصادية فى مدة معقولة . ورغم الأهمية القصوى لهذا الجانب من المشكلة وانعكاسه على الأوجه الأخرى للميراث الاستعمارى فى القارة فاننا سنقصر بحثنا على الاعتبارات ذات الصلة المباشرة بفكرة الزنجية .

لم يقتصر الضرر المادى لميراث الاستعمار على الناحية الاقتصادية وانما تعدى ذلك الى اجراءات تعسفية أخرى تناولت ميادين الثقافة والتعليم والنشر بشكل

(٢٨) George H. Sabine, A History Of Political Theory, third ed., London 1961, pp. 740, 741, 674, 694, 705, ff.

أدى الى ضمور الثقافات فى أفريقيا وتدهور اللغات المحلية وحالة التعليم بحيث أصبح وقفا فى الأغلب الأعم على المدارس التبشيرية التى تضع الأهداف السياسية فى المحل الأول من الاهتمام .

تهدف تلك الاجراءات ضمن ما تهدف الى اضعاف الثقافات الوطنية والوعى القومى تمهيدا لدفع الافريقيين تدريجيا وخاصة الصفوة منهم الى تمثل واستيعاب الحضارة الغربية وطابعها الثقافى ظنا منهم أن ذلك كاف ليتحولوا الى أدوات طيّعة تمكن من استمرار الأشكال المستحدثة للاستعمار الغربى لافريقيا . وقد سجلت هذه السياسة نجاحا ملحوظا فى بعض أجزاء القارة وأبرز مثال عليها هو هاستنجز باندا رئيس جمهورية مالاوى . ولكنها سجلت أيضا فشلا ذريعا وجاءت بنتائج عكسية فى بلاد أخرى كما حدث فى الجزائر وغانا وغينيا .

يعلق سنجور على تلك التصرفات الاستعمارية بقوله أن مجهودات فرنسا لفرض سياسة الاستيعاب هى التى عمقت احساس الافريقيين باليأس ودفعت الصفوة منهم الى البحث الدائب عن ذاتيتهم وخصوصيتهم كأفريقيين وهى التى وجدوها فى الزنجية . وفى رأيه أن سياسة الاستيعاب مقضى عليها بالفشل لأن الافريقيين يستطيعون مثلا تمثل اللغة الفرنسية أو الرياضيات ولكنهم لا يستطيعون نزع أرواحهم أو جلودهم السوداء[٢٩] .

ان ارغام الافريقيين على تمثل الحضارة الغربية وان كان قد أخصب شعورهم بالزنجية الا أنه أدى بطريقة ما الى اخضاعهم واحداث خلل بشخصيتهم . لهذا كانت الزنجية فى مفهوم المفكر الشاعر ايمى سيزار مثلا هى شكل من أشكال الاحتجاج وسلاح فى الصراع من أجل تحقيق المساواة الاجتماعية وتحد فى وجه عالم يبدو أنه لا يعبد سوى الانجازات المادية . وكان من الطبيعى أن تشحذ تلك الآراء عزائم المثقفين فى الدول الافريقية التى تعرضت لأشكال مختلفة من

(٢٩) Senghor. « What is Négritude » ?, in : The Ideologies of the Developing Nations, op. cit., p. 248.

سياسات الاستيعاب الثقافى التى مارستها الدول الأوروبية أو المستوطنون البيض فى القارة(٣٠) .

أما سنجور فانه يرى أن الزنجية اليوم لم تعد تعبر عن نفسها بشكل يتعارض مع القيم الأوروبية وانما تكمل تلك القيم . لهذا فان واجب المدافعين عن الزنجية ليس أن يتركوا أنفسهم عرضة للاستيعاب وانما أن يتمثلوا أهم القيم الأوربية من أجل تنشيط القيم الراكدة للزنجية(٣١) .

(ب) لقد خلف الاستعمار الأبيض وراءه قدرا كبيرا من المرارة فى افريقيا ليس فقط بسبب الاستغلال الاقتصادى المكثف الذى تعرضت له القارة ومحاولات الادماج القسرية فى الثقافة الغربية على حساب اللغات والثقافات الوطنية وانما أيضا بسبب القهر والاذلال اللذين تعرضت لهما معنويات الافريقيين . وقد وصل تأثير هذا الاستعمار الروحى الى درجة أن بعض مفكرى الزنجية بدلا من أن يقروا بفضل الثقافة الغربية وهو ما قد يكون مفهوما تورطوا فى الاشادة بفضل الاستعمار على أفريقيا كما سنشرح فى سياق دراستنا .

يشير ليوبولد سنجور الى المآسى التى لا تحصى والتى عانت منها أفريقيا فى بداية الحركة الاستعمارية نتيجة تجارة الرقيق ويشبهها بحريق الغابة الذى لا يبقى ولا يذر . ولابد من استطراد قصير هنا لأنه أخطأ فى تحديد المسئولين عن هذه المأساة اذ كان الأولى به وهو المفكر الذى يحرص دائما على اعطاء الانطباع باتباع المنهج العلمى فى الكتابة ألا يردد مزاعم بعض الكتاب الغربيين الذين يتهمون العرب ببد تجارة العبيد فى أفريقيا والعمل على ازدهارها وذلك تهربا من المسئولية التاريخية لدول الغرب فى هذه التجارة اللا انسانية .

وقد بدى انسياق الرئيس سنجور وراء تلك المزاعم فى اشارته غير المباشرة التى يقول فيها أن ما تعلمه من أساتذته الفرنسيين ومن المراجع البريطانية عن أفريقيا هو أنه خلال السنوات الأولى للاستعمار « وحتى قبل الاستعمار »

(٣٠) Ibid., p. 249 ; Senghor, « Problematics of Négritude », Symposium, p. 26 ; B. Davidson, Which Way Africa, op. cit., pp. 72, 74.

(٣١) Senghor, « What is Négritude » ,, op. cit., pp. 249, 250.

دمرت تجارة الرقيق أفريقيا السوداء . ورغم امكان وسهولة تفنيد هذا الاتهام بالرجوع الى كثير من الكتابات الغربية نفسها الا أنه يقع خارج نطاق بحثنا هذا . ويكفى أن نورد ما لاحظه أحد الكتاب الفرنسيين على نتائج أحد الاجتماعات التى عقدها الافريقيون الناطقون بالفرنسية فى باريس حول الزنجية والذى بحثوا فيه مسئولية أوروبا عما اقترفته فى حق أفريقيا فى مجال النخاسة والاستعمار ووسائل اصلاح هذا الخطأ(٣٢) .

نقول أن كتابات وأحاديث زعماء أفريقيا تطنب فى تصوير آثار الجراح النفسية للاستعمار فى القارة . ويلاحظ سنجور أن الافريقيين كانوا يعاملون فى أوطانهم كمواطنين من الدرجة الثانية ينكر عليهم الرجل الأبيض أنهم كانوا فى يوم ما أصحاب حضارة تليده مساوية للحضارة الغربية وان كانت ذات طبيعة مختلفة(٣٣) .

علاوة على ذلك ، فان محنة الزنوج فى الولايات المتحدة بصفتهم الثمرة الحية والأثر الباقى لتجارة الرقيق تحرك هى الأخرى أشجان أقرانهم فى أفريقيا نظرا لوحدة المعاناة وتشابه الظروف التى أخضعتهم لتحكم الرجل الأبيض فى المجتمعين الأمريكى والأفريقى . ويستشهد سنجور بصفة خاصة بآراء دى بوا أبو الزنجية فى وضع المواطن الأسود فى الولايات المتحدة وكيف ينظر اليه الرجل الأبيض كانسان بلا عقل ناقص الآدمية لم تتطور بعد ولن تتطور أبدا قدراته الثقافية والأخلاقية .

وتصل قمة المأساة والقهر عندما تفرض هذه الصورة نفسها على عقل الزنجى فينظر الى نفسه من خلال أعين الآخرين مع ما يؤدى اليه ذلك من التمزق وشعور الانسان تجاه ذاته بالاغتراب . هى مأساة ــ كما تدل على ذلك كتابات دى بوا ــ أن يكون تقييم الزنجى لنفسه من خلال معيار العالم الأبيض الذى

---

(٣٢) Ibid., p. 248 ; cf. Paul-Marc Henry, « Pan-Africanism : A Dream Come True », in : Philip W. Quigg, ed., Africa, A foreign Affairs Reader, New York 1964, p. 167.

(٣٣) Senghor, « Problematics of Négritude », Symposium, p. 2.

ينظر اليه باستخفاف واحتقار وشفقة[٣٤] . هذه النظرة البيضاء والاستجابة أو الاستكانة السوداء لها هى التى تجعل الرجل الأبيض يضع الزنجى فى مكانه الموضوعى فى أسفل السلم الاجتماعى أى يمارس ضده التفرقة العنصرية كانسان غير مكتمل الآدمية وبالتالى ينكر عليه حقوقه الاقتصادية والسياسية والثقافية .

ونصادف التأثير السيىء للاستعمار الروحى فى بعض كتابات المدافعين عن الزنجية الذين يشيدون بفضل الاستعمار الأوربى على أفريقيا بحجة أنه أدخل فى المستعمرات أسلوبا جديدا للتغيير مرتبط بمطالب الحياة العصرية[٣٥] متناسين أن المستفيد الرئيسى مما يسمونه بالحياة العصرية فى ظل الاستعمار هى أقلية ضئيلة من سكان المدن ذوى المصالح المرتبطة بالوجود الأجنبى .

وعلى كل نلاحظ فى كتابات هؤلاء كثيرا من التناقض . ففى المثال الذى نشير اليه الآن نجد أن الكاتب يعود ليقرر بأن نفس هذه الظاهرة الاستعمارية قد أثرت على مصائر الشعوب الزنجيد الافريقية بشكل أدى الى تأخير تقدمها الاقتصادى . ولا يستقيم هذا القول مع الفقرة السابقة لأنه لو كان أسلوب التغيير الجديد الذى أدخله الاستعمار هو الأسلوب السليم فعلا والمناسب لظروف تلك البلاد لما أدى الى تأخير عمليات التنمية كما ذكر .

٢ ـ التأثيرات الحضارية والثقافية المتبادلة :

يعترف علماء الزنجية بفضل علماء الغرب ويمتدحون المجهودات الكبيرة التى بذلها المؤرخون منهم والمتخصصون فى العلوم الاجتماعية والفنون فى اكتشاف الكنوز الحضارية لافريقيا السوداء فى بداية هذا القرن وتأكيدهم على العلاقة الحضارية التى تربط بين زنوج أفريقيا وآسيا والأوقيانوسية مع التسليم بالقيمة العلمية والحضارية لتلك الكنوز .

ويرجع الفضل فى شد الانتباه الى الزنوج الى الكتاب الاغريق الذين سموهم

---

(٣٤) Lilyan Kasteloot, Negro-Anthology, p. 15 ; Jean Wagner, Negro Poets of the United States, p. I, both quoted by Senghor, « Problematics of Négritude », op. cit., pp. 17, 18, 21.

(٣٥) Abdou Diouf, « Négritude and Development », Symposium, p. 12.

بالأثيوبيين اشتقاقا من الكلمة اليونانيـــة aïthiopès أى أســـود علاوة على تمييزهم بين (الأسيويين) الشرقيين (والأفريقيين) الغربيين[٣٦] .

ولا شك أن الصفوة الافريقية قد استفادت من العلماء والفنانين والكتاب الأوربيين الذين علموهم كيفية اكتساب معرفة أفضل ليس بالطبيعة الخاصة للحياة الافريقية وانما بقيمها الحضارية التى لا يمكن تعويضها . هكذا نعرف أن الذين كشفوا النقاب عن تلك القيم وعن مغزى الزنجية وازدهار حضارتها فى العصور السحيقة لم يكونوا من السياسيين الفرنسيين الذين كانت تحركهم الأيديولوجية والمصالح الاستعمارية للدفاع عن سياسة الاستيعاب ، وانما أماط اللثام عنها عدد من المفكرين والعلماء الأحرار[٣٧]

يعتقد كتاب الزنجية أن دور أفريقيا فى التأثيرات الحضارية والثقافية المتبادلة بينها وبين أوروبا انما يكمن فى دورها الذى قامت به فى الماضى كقدوة لغيرها . لم تكن القوة المادية وحدها هى العامل الأساسى بالنسبة للشعوب الأفريقية الزنجية ، كما لم تكن لها تلك الشهية النهمة التى يحركها المجتمع الاستهلاكى باتجاهه الذى لا يعرف الكلل نحو الانتاج ولو كان الثمن هو اغتراب الانسان وتحويله الى مجرد أداة من أدوات الانتاج . انما كان العامل الأساسى بعد اشباع الحاجات المادية هو تحصيل قدر من المعرفة الروحية والأخلاقية والانسانية والفنية وباختصار تحصيل قدر من الثقافة[٣٨] .

ان الذى لا يمكن انكاره هو أن قيم الافريقية الزنجية أخصبت حضارات أوروبا القديمة بامدادها بقدر أكبر من قوة الانفعال المعروفة عن الافريقى وهى

---

(٣٦) ليوبولد سنجور ، أسس الافريقانية ، أو الزنجية والعروبة مرجع سابق، ص ٢٠ ، انظر كذلك أعلاه هامش ٩ ؛

(٣٧) Senghor, « Problematics of Négritude », Symposium, p. 7.
Ibid., p. 23 ; Senghor, « What is Négritude » ?, in : The Ideologies of the Developing Nations, op. cit., p. 248.

(٣٨) A. Diouf, « Négritude and Development », Symposium, p. 13.

قوة لطاقة المحبة والدفء الانسانيين والذين مكنا تلك الحضارات القديمة من حسن وقوة التعبير عن نفسها(٣٩) .

هذا الاحساس بعظمة الماضى وبدين الآخرين هو الذى يدفع الافريقيين الى مطالبة الثقافات الأوروبية بالاعتراف الكامل بالمساهمة الخلاقة التى قدمتها أفريقيا السوداء الى ما يعرف الآن باسم الحضارة الغربية . انهم يعتبرون أن مساهمتهم فى مجالات التاريخ والموسيقى والشعر تضع الافريقى على قدم المساواة مع الأوروبى . كما سبقت الاشارة فانه ليس هناك انكار من جانبهم لما قدمته الثقافة الغربية لافريقيا بشرط أن يعترف الآخرون أيضا بأن أفريقيا بدورها تستطيع أن تعطى كماسبق أن أعطت فعلا الكثير فى مقابل ما أخذت(٤٠).

ماذا عن رؤى المستقبل ؟ وكيف يتصور فلاسفة الزنجية مستقبل العلاقات بينها وبين الليبرالية على وجه التحديد ؟ بحث هذا الموضوع الهام على ضوء الثورة التكنولوجية التى تمر بها أوروبا اليوم والآثار المحتملة التى يمكن أن تظهر نتيجة زيادة العلاقات الاقتصادية والامتزاج الحضارى مع الدول المختلفة فى أفريقيا .

ينادى أصحاب فكرة الزنجية بضرورة السيطرة على هذا التطور وعلى الرغبة الملحة لدى الشعوب الافريقية للحاق بركب الحضارة والتمدين بما يكفل نموا متوازنا أى السهر باستمرار على حتمية التوفيق بين التنمية الاقتصادية والحفاظ على الأصالة الافريقية والايمان بحضارتها .

يستلزم هذا بالطبع أن تقبل الدول الافريقية التغيرات التى تستلزمها الحضارة التكنوصناعية فى البنية الاجتماعية بشرط ألا تعوق تلك التغيرات الازدهار الكامل للجانب الانسانى فى البشر أو تختنق لأصالة لافريقية وقدراتها المبدعة .

---

(٣٩) سنجور ، أسس الافريقانية ، أو الزنجية والعروبة ، مرجع سابق ، ص ٢٧ ; Ibid., p. 15

(٤٠) Poul-Marc Henry, « Pan-Africanism : A Dream Come True », in : Africa, op. cit., p. 167.

ان قيـام حضارة حقيقية وحديثة لا يعتمد على التطور الكبير للتكنولوجيا داخل مجتمعات مغلقة ومنعزلة عن بعضها البعض ، وانمـا يمكن أن تقوم مثل تلك الحضارة نتيجة للحوار بين الثقافات المختلفة للأمم التى تستطيع كل منهـا أن تساهم بقـدر من روحها وملكتها من أجل مواجهة الاحتياجات التى يتطلبها قيـام حضارة عالميـة(٤١) .

أما سنجور فـيرى أن الزنجيـة مذهب انسـانى . وهى والحـال كذلك ترحب بالقيم الأوروبية وبقيم الرجل الأبيض بل بقيم كل الأجناس والقارات . ففى محـاضرة جديدة له شرح سنجور معنى الرغبـة فى الانفتـاح على قيم وحضارات الأجناس الأخرى أيضا عندما تكلم عن الزنجية والعروبة فأكد أنه وان كان الهدف هو بنـاء افريقيا موحدة فان ذلك يجب أن يتم على أساس التقابلات الثقافيـة وليس على الاختلافات السياسـية . فيجب على العرب البربر أن يتمسكوا بحضـارتهم وبقيمهم المتمثلة فى العروبة بصفتها المصـدر المشـع للفضائل الخالدة للبدو . وكذلك على الزنوج الافريقيين أن يتمسكوا بقيمهم فينهلوا كل يوم من المنابع الغنية للايقاع والصـور الرمزية للحب وللايمان . واذا تمسـك كل منهما بقيمه اسـتطاع عند التقابلات الثقافيـة والحضـارية أن يجد لديه ما يعطيـه(٤٢) .

هكذا تتقبل الزنجية وتتمثل القيم الليبرالية لأوروبا وقيم الأجناس والقارات الأخرى من أجل اخصـاب قيمها هى وتثبيتها بالأسلوب المنهجى وبقدر أكبر من الحيوية والعقلانيـة . وبهذه الطريقة يعتقد فلاسفة الزنجية أنها ستكون بعـد اثراء قيمهـا أقـدر على المسـاهمة فى بنـاء حضـارة تشمل الجنس البشرى كله(٤٣) .

---

(٤١) A. Diouf, « Négritude and Development », Symposium, p. 14.

(٤٢) سنجور ، أسس الافريقانية ، أو الزنجية والعروبة ، مرجع سابق ، ص ٥٥ ، ٥٦

(٤٣) Senghor, « What is Négritude », in : The Ldeologies of the Developing Nations, op. cit., p. 250 ; A. Diouf, « Négritude and Development », p. 15 ; A. S. Kane, « Être des hommes de notre siècle », in : Le Soleil, op. cit., p. 5.

خامسا ـ الزنجيـــة والمـــاركسية :

يتحدث كثير من المدافعين عن فكرة الزنجية عن المـــاركسية والطريق الخاص الذى تنتهجه السنغال بعيدا عن كل من الليبرالية والمـــاركسية كما أنهم يوجهون كثيرا من النقد الى بعض الزعماء الافريقيين لاتبـــاعهم سياسات تبدو شيوعية فى ظاهرها . لهذا تحفل كتاباتهم عن الزنجية بآراء يظنونها جديدة أو وقفـــا على تجربتهم فى السنغال مثل ضرورة اعطاء الأولوية للانسان قبل المـــادة ،والتمسك بالقيم الروحية ، والعـــدالة الاجتماعية ، ورفض فكرة الصراع الطبقى الى آخر مثل تلك الآراء .

وسنثبت فى الأسطر التالية كيف أن التركيز الذى يبدو أحيانا فى كتاباتهم على الخلاف مع « الافريقيين المـــاركسيين » ليس له ما يبرره لأن كثيرين من هؤلاء الأخيرين يتبعون نفس تلك الاتجاهـــات ويتمسكون بالقيم التى أشرنا اليها الآن . أن الحديث الفضفاض عن الشيوعية فى أفريقيا وعن مدى قوتهـــا أو عن وجود دول قريبـــة جدا من التطبيق المـــاركسى هى مبالغات لا تستند الى أســـاس واقعى .

لا شك أن هنـــاك بعض الحقائق والتطورات التى فرضت نفسها على الواقع الافريقى وخاصة بعد حصول كثير من دولهـــا على الاستقلال . وأهم هـــذه التطورات هو التبادل الدبلوماسى الواسع والكامل بين تلك الدول الافريقية وكل من الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية . كما أن هناك سيلا لا ينقطع من الزيارات والبعثات التجارية والثقافية المتبادلة وخاصة بين الدولتين الاشتراكيتين الكبيرتين وعدد من الدول الافريقيـــة المستقلة حديثـــا . وقد أدى نمو تلك العلاقات الى عقـــد كثير من المعـــاهدات التجارية والتبـــادل الثقافى والمعونة الفنية مما ساعد الدولتين الكبيرتين ولأول مرة فى أفريقيا على خلق وجود منتظم ومستقر لهما فى وقت قصير نسبيا .

لم تكن تلك التطورات لتلقى ترحيبا أوتصادف هوى من جانب الولايات

المتحدة والدول الاستعمارية السابقة فى القارة ، أو من قبل الأحزاب ونظم الحكم الرجعية فى أفريقيا المرتبطة بتلك الدول الاستعمارية .

من هنا بدأت المبالغات عن الوجود الشيوعى فى أفريقيا ومدى تأثيره على الأوضاع السياسية فى القارة واحتمالات انتشار المبادىء الماركسية على نطاق واسع بين الشباب .

ولكن يجب أن نلاحظ ــ ومنذ البداية ــ أن وجه الخطورة الحقيقى فى نظرهم كان يتمثل فى ظهور التيار الاشتراكى الجديد فى الساحة الافريقية وتبلور أسلوب جديد فى العلاقات الدولية تتبعه الدول الاشتراكية ويتمثل فى التعامل مع الدول الافريقية على قدم المساواة وبلا عقد تفوق أو تعالى وتقديم قروض للمساعدة فى التنمية الاقتصادية بفوائد منخفضة تبلغ حوالى ٢ بالمائة فى حالة القروض السوفيتية أو بلا فوائد على الاطلاق كما فعلت الصين الشعبية وذلك بالمقارنة بالقروض الغربية ذات الفوائد الباهظة والقيود السياسية التى تهدد استقلال الدول الافريقية الحديثة .

كان من الطبيعى أن تؤدى هذه المفارقات فى المعاملة التى تلقاها الدول الافريقية من قبل المعسكرين الى تخوف الدول الغربية من أن تؤدى المقارنة بين هذين الاسلوبين فى العلاقات الدولية علاوة على المرارة التى خلفتها الدول الاستعمارية بسبب ما اقترفته فى حق أفريقيا الى أن يزيد التعاطف مع الدول الاشتراكية بشكل قد يجعل منها أو من نظامها قدوة أمام الشعوب والحكومات الافريقية المتفتحة لكل جديد .

لكن هذا الخوف ليس له ما يبرره اذ رغم توثق العلاقات الافريقية بالدول الاشتراكية فى مجالات متعددة ظل التأثير العقائدى للماركسية محصورا فى دائرة ضيقة لأسباب شتى ، علاوة على أن اطلاق اسم شيوعية أو حتى ماركسية على بعض التنظيمات أو الأحزاب الصغيرة فى بعض دول القارة هى تسميات مجازيه أكثر منها واقعية لأسباب شتى أيضا سنحاول تفسيرها فى النقاط الثلاث الأولى التالية . وفى النقطة الرابعة نناقش آراء مدرسة الزنجية فى الماركسية

والماركسيين فى أفريقيا . وفى النقطة الخامسة نبحث نقد الماركسيين للتيار الليبرالى فى أفريقيا بصفة عامة وفكرة الزنجية بصفة خاصة .

١ ــ ليس هناك توافق كبير أو أساس مشترك بين ما يسمى مجازا بالماركسية الأفريقية وبين كثير من نظريات كارل ماركس حتى فى شكلها المعدل الذى تطبق به فى الدول المتخلفة اقتصاديا وسياسيا . ان السياسة الخارجية بالنسبة للافريقيين الماركسيين تعنى التعاون الوثيق مع الاتحاد السوفيتى أو الصين الشعبية أو كليهما . وفى السياسة الداخلية فانها تشمل اتخاذ عدة اجراءات منها الاصلاح الزراعى والسيطرة الحكومية على التجارة الخارجية والتخطيط المركزى والأخذ بنظام الحزب الواحد مع نشر أيديولوجية الحزب الحاكم بين الجماهير .

ومن الجلى أن مثل هذا الأسلوب الثورى قد يساعد فى الاستيلاء على الحكم والاحتفاظ به لكن النتيجة النهائية ستكون نظاما للحكم لا يتفق الا فى القليل النادر مع الماركسية التقليدية مما يعطى وزنا للرأى القائل بأن هذه الماركسية الافريقية ظاهرة سياسية جديدة(٤٤) .

٢ ــ يقع أتباع فكرة الزنجية وكثير غيرهم من الكتاب المتأثرين بالآراء الليبرالية فى أخطاء كبيرة فى حكمهم على مجرى الأحداث السياسية فى أفريقيا والنغمة الحادة المعادية للغرب التى تبدو أحيانا فى تصريحات بعض الزعماء الافريقيين . وينتج هذا الخطأ من الخلط المعيب بين الواقع وبين بعض المظاهر الخادعة التى استطاع التنبه اليها قلة من الباحثين الغربيين أنفسهم(٤٥) .

ان المؤيدين للماركسية فى أفريقيا ليسو جماعة متجانسة بل فئات متعددة منها الوطنيون اليساريون والشيوعيون الملتزمون بينما تقع أغلبية المؤيدين بين هاتين الفئتين . لهذا فرغم وجود تنظيمات أو أحزاب ماركسية شكلا فان تنظيمها

---

(٤٤) Walter Z. Laqueur, « Communism and Nationalism in Tropical Africa », in : Africa, op. cit., p. 186.

(٤٥) Ibid., p. 189.

الداخلى وتكوينها العقائدى يلقى كثيرا من الشك على فعالية الدور الذى يمكن أن تقوم به .

من المظاهر الخادعة الأخرى البيانات والتصريحات المؤيدة للشيوعية التى يصدرها الزعماء الوطنيون من آن لآخر . هذا علاوة على أن معظم الأحزاب السياسية الافريقية تحبذ شكلا ما من أشكال التخطيط الاشتراكى ، وتنهج كثير منها سياسات معادية للامبريالية بل ويمكن أيضا أن نستشف من بعض وجهات النظر التى يعبرون عنها تأثيرات واضحة لنظرية لينين عن الامبريالية .

ولكن هذا لا يعتبر معيارا سليما كما أنه لا يجعل منهم شيوعيون بأى حال من الأحوال لأن نظرية لينين عن الامبريالية ــ مثلا ــ سبق أن وجدت مؤيدين لها فى الماضى فى دوائر معروفة بعدائها الشديد للينينية مثل حزب الكومنتانج بزعامة شانج كاى تشيك . ان التحليل الدقيق للواقع كفيل باظهار أن هؤلاء الزعماء ما هم الا وطنيون يساريون على الأكثر وليسو شيوعيون حتى وان كانوا يعطون أصواتهم أحيانا فى الأمم المتحدة لصالح مشروعات القرارات السوفيتية أو يحضرون مؤتمرات تدعو اليها هيئات أو منظمات شيوعية(٤٦) .

٣ ــ يستشهد سنجور وغيره من مفكرى الزنجية بآراء ومواقف من يسمونهم بزعماء افريقيين ماركسيين . ونستعمل اصطلاح «الافريقيين الماركسيين» وليس العكس لأنه سيثبت فيما بعد أنهم افريقيون بالدرجة الأولى ثم قد يكون بعضهم متأثرا بدرجة ما بالماركسية . وقبل مناقشة آراء سنجور فى هذا الشأن والانتقادات المتبادلة بينه وبين الماركسيين يجدر بنا لكى نصل الى الحقيقة أن نلقى أولا نظرة عن قرب على تلك الزعامات سواء من ناحية الاعداد النظرى والثورى ، أو من ناحية الآراء والمواقف الأيديولوجية .

(أ) من ناحية الاعداد النظرى والثورى يلاحظ أن الزعماء الافريقيين الماركسيين لا يمكن مقارنتهم بأقرانهم من الرعيل الأول من الزعماء فى الاتحاد السوفييتى أو الغرب . كما لا يمكن مقارنتهم أيضا بالزعماء الماركسيين فى

(٤٦) Ibid., pp. 188, 189.

آسيا من أمثال ماوتسى تونج وهوتشى من وكيم ايل سونج . فهؤلاء القادة سواء كانوا فى الصين أو فيتنام أو كوريا كانت لهم صلات قوية ولأحقاب متعاقبة بالتنظيمات الشيوعية الدولية مثل الكومنترن ثم الكومنفورم من بعده . وقد أتاح لهم ذلك خبرة واسعة بالمعلومات الأساسية عن اللينينه والتزاما تاما بنظم أحزابهم وبالأممية البروليتارية . أى أنهم باختصار بنوا أنفسهم وفقا للمثل الأعلى للبلشفيك الروسى خلال العقدين الأول والثانى من هذا القرن .

وعلى العكس من ذلك نجد الزعماء الافريقيين الماركسيين الذين يمثلون جيلا أحدث نشأ فى ظروف مغايرة تميزت بقوة المعسكر الاشتراكى ماديا وتفتته أيديولوجيا . وفى الأغلب لا تعدو معلومات هؤلاء عن الماركسية اللينينية بعض القشور السطحية فى النظرية والتطبيق مثل نظرية لينين عن الامبريالية وبعض المعلومات الأولية عن التخطيط والتنظيم الحزبى .

معنى هذا أن عقيدتهم ليست عميقة الجذور وأكثر من ذلك فان حصولهم على الاستقلال والسلطة تم بسهولة نسبية لا تقارن بالظروف التى عاشها زعماء الجيل القديم من البلشفيك الذين كانوا يخضعون لنظام حديدى ويكافحون لسنين طويلة فى الظروف الصعبة للسرية والخروج على القانون القيصرى . مثل هؤلاء الزعماء الافريقيين اذن لايمكن اعتبارهم شيوعيين بالمعنى المتعارف عليه بين الأحزاب الشيوعية فى الشرق أو الغرب بل هم على أكثرتقدير ــ واذا أطلقنا الأوصاف جزافا ــ « شيوعيون » من نوع جديد(٤٧) .

(ب) من ناحية الآراء والمواقف الأيديولوجية نجد أن الحقيقة الملفتة للنظر والتى يعترف بها المراقبون الغربيون أنفسهم هى أن الزعماء الافريقيين الماركسيين لهم آراؤهم الخاصة فيما يتعلق بما يجب عمله فى أفريقيا دون تقيد بحجية النظريات التى وضعها لينين أو بالنتائج التى تمخضت عنها تجارب الشيوعية الأخرى خارج أفريقيا وذلكخلافا لرأى مفكرى الزنجية الذين يعتبرون هؤلاء الزعماء ملتزمين بالماركسية اللينينية . وللرئيس الغينى أحمد سيكوتوريه رأى

(٤٧) Ibid., pp. 186, 187.

مبكر فى هذا الشأن عبر عنه فى معرض مناقشته لدور المادية الجدلية اذ قرر « ان الفلسفة لا تثير اهتمامنا فلدينا من المهام المحدودة ما يكفى »(٤٨) .

وسيجرى الاستشهاد فيما يلى بكثير من الأمثلة التى تكشف الأوضاع فى غينيا بالذات بصفتها من أكثر الدول الافريقية استهدافا لهجمات الامبريالية العالمية ونقد المفكرين الليبراليين بسبب خطها السياسى المتحرر ولصلاتها الوثيقة بالمعسكر الاشتراكى الذى لا ينظر اليها بدوره ــ ولأسباب يراها ــ على أنها دولة اشتراكية وانما مجرد تجربة ذات نواة بروليتارية يقودها وطنيون يساريون .

يتعدى الأمر أحيانا مجرد الاحتفاظ بآراء خاصة حول مشاكل أفريقيا النظرية والتطبيقية ويصل بتلك الآراء الى التعارض التام كما هو الحال فى المشكلة التى عرضناها الآن . فمثلا نلاحظ أن الشعار الذى كان يرفعه الاتحاد السودانى فى مالى هو « لا ممارسة ثورية بغير نظرية ثورية » . بل أن للرئيس سيكوتوريه نفسه رأى آخر عبر عنه فيما بعد يختلف عن ذلك الذى أشرنا اليه أعلاه ويقول فيه : « لا يمكن أن تكون هناك ثورة بغير وعى ثورى » .

وفى الواقع تستحق آراء هؤلاء الزعماء الافريقيين حول دور الأيديولوجية الثورية مناقشة أوسع ليس هنا مجالها وان كانت تلك الاشارة العابرة تدلنا على أنهم لا يحتفظون فقط بآراء خاصة حول المشاكل الافريقية الحيوية وانما يفتقرون أحيانا الى وحدة أيديولوجية فيما بينهم مما يفند ما يوجهه اليهم أتباع فكرة الزنجية من انتمائهم لتيار فكرى واحد هو الماركسية اللينينية .

حقيقة أن هؤلاء الزعماء الافريقيين تأثروا بدرجات متفاوتة بالماركسية . ولكن عقائد أخرى وأفكارا جديدة يبدو أنها باشرت تأثيرها عليهم أيضا مثل القومية والوحدة الافريقية وحتى العنصرية أحيانا . ومن بين كافة هذه العقائد والتيارات يحتفظ العداء للاستعمار ــ بسبب ما اقترفه فى حق أفريقيا ــ بمكان بارز فى فكر ووجدان الزعماء الافريقيين وبشكل يطغى أحيانا على تعاطفهم مع الأيديولوجية الماركسية .

---

(٤٨) A. Sékou Touré, Texte des Interviews accordées aux Représentants de la presse, Conakry 1959, p. 108, quoted by W. Z. Laqueur, in : Africa, op. cit., p. 187.

قد تفسر هذه الحقيقة الترحيب والنفوذ الكبيرين اللذين لا زالت تحظى بهما تعاليم السلطان جاليف أحد القادة التتر السوفييت الذى عمل فى وقت ما نائبا لستالين لشئون القوميات ثم فصل من مناصبه لاتهامه بانحرافات قومية[٤٩] . وتتمتع تعاليم جاليف بتقدير خاص من جانب الافريقيين الماركسيين لأنه نادى بضرورة انشاء دولية جديدة تضم شعوب المستعمرات .

يرى جاليف أنه كان من الأجدى أن تضع الماركسية آمالها فى شعوب الشرق المستعمرة بدلا من شعوب الغرب الصناعية فشعوب الشرق فى رأيه تقدمية بقدر تمثيلها لما أسماه الأمم البروليتارية على النطاق العالمى . ويضيف الى ذلك قوله بأن اخضاع واستغلال كافة الطبقات الاجتماعية فى المستعمرات بواسطة التسلط الغربى جعل الصراع الطبقى فيها أقل أهمية .

وقد وجد هذا الرأى الأخير صدى واسعا بين بعض الزعماء الافريقيين مثل سيكوتوريه الذى أنكر امكان حدوث صراع طبقى فى غينيا لأنه لا توجد فيها طبقات وانما شرائح اجتماعية وحيث الأساس الذى يقوم عليه المجتمع هناك هو الأسرة والمجتمع القروى[٥٠] .

تجاوز تأثير تعاليم جاليف الزعماء الافريقيين ليؤثر أيضا فى مفكرى الزنجية من أمثال عبده ديوف السنغالى وان كان هذا قد أخطأ فى نسبة آرائه الى مصدر فرعى هو بيير موسى بدلا من ذكر المصدر الأصلى لتلك التعاليم فى آسيا وأفريقيا ونعنى السلطان جاليف .

ونسوق آراء ديوف هنا رغم أنه ليس من الافريقيين الماركسيين لاثبات أن الطابع القومى التحررى لبعض الأيديولوجيات يمكن أن يجذب اليه مفكرين يمثلون تيارات سياسية متباينة .

يقول ديوف أن الدولة ــ وهى تسترشد بفكرة الزنجية الافريقية ــ سيكون عليها أن تضمن حدا أدنى للدخل وخدمات اجتماعية مجانية لكل مواطن . وعلى

---

(٤٩) Ibid., p. 187.

(٥٠) Ibid., pp. 187, 188, 190.

ضوء ذلك فان جهاز الدولة لا يقوم بدور أداة القمع فى يد طبقة اجتماعية ضد طبقة أخرى وانما يصبح حكما يتم من خلاله تنظيم أوجه النشاط الأساسية بواسطة مؤسسات مناسبة . وبذلك يساعد جهاز الدولة على توفير قدر أكبر من العدالة الاجتماعية والقضاء على نظرية الصراع الطبقى(٥١) .

ان فكرة الطبقة تعبر عن التعارض بين الغنى والفقير وهى حالة لا تتوفر فى المجتمع الافريقى حيث تتكون البروليتاريا الحقيقية من الفلاحين وليس من العمال . أما اذا تم التعبير عن فكرة الطبقة بالاصطلاح الحديث الذى يقول بوجود تعارض بين هؤلاء الذين يملكون وأولئك الذين لا يملكون فان مثل هذا الاصطلاح ينطبق أكثر ما ينطبق على الأمم وهى الفكرة التى يقول عبده ديوف عنها أن يبير موسى هو الذى عالجها فى كتابه « الأمم البروليتارية » . ثم يستشهد ديوف بقول الرئيس سنجور « ان المشكلة اذن هى الكفاح من أجل القضاء على عدم المساواة على المستوى الدولى بين الأمم الرأسمالية والأمم البروليتارية ، بين الأمم الغنية والأمم الفقيرة» (٥٢) .

يباشر الافريقيون الماركسيون حرية تامة أيضا فى ميدان الفكر والعمل ويعترف الكتاب الغربيون أنه رغم تأثرهم العميق ببعض الاتجاهات الاشتراكية فان تصرفاتهم تعكس قدرا ملحوظا من الاستقلال السياسى . ولا يؤدى هذا بالضرورة الى أن يتبع الافريقيون الماركسيون سياسة ودية تجاه الغرب ولكنهم فى الوقت نفسه لا يتلقون الأوامر من السوفييت . ان كل همهم هو أن يحتلوا مكانهم كقوة مستقلة فى السياسة الدولية . (٥٣)

أى أن زعماء ومفكرى الزنجية لا يحتكرون حق التفاخر بأن سياستهم تنبع من ضمائرهم فقط ومن واقعهم الأفريقى . فها هو ذا الرئيس سيكوتوريه يؤكد أكثر من مرة ايمانه باشتراكية أفريقية متميزة ، ومعارضته لأى شكل من أشكال التدخل من جانب الدول الاشتراكية . كما أنه رفض فى بيان أعلنه عام ١٩٦٠

---

(٥١) A., Diouf, « Négritude and Development », Symposium, pp. 7, 8.

(٥٢) Ibid., p. 8.

(٥٣) W. Z. Laqueur, « Communism and Nationalism in Tropical Africa », in : Africa, op. cit., p. 188.

السماح لحزبه باتباع خط أيدولوجى شيوعى رغم أن أصحاب فكرة الزنجية يشيرون دائما الى غينيا والكونجوبرازافيل على أساس أنهما خاضعتان لحكم شيوعى ، ربما لتعرض فكرة الزنجية للنقد الشديد من جانب زعماء هاتين الدولتين .(٥٤)

أكثر من ذلك رفض سيكوتوريه السماح بتكوين حزب شيوعى مستقل فى غينيا على أساس أن الشيوعية ليست هى الطريق الذى يناسب أفريقيا . يحدث هذا فى الوقت الذى يعلم فيه سيكوتوريه أن الدول الشيوعية ــ وهى التى تقدم لغينيا أشكالا مختلفة من المساعدات والمعونات ــ تحبذ قيام حزب شيوعى كضمان أكيد وحاسم لعدم العودة الى النظام الرأسمالى . وبالمثل يمكن ملاحظة الاستقلال الفكرى للتجربة الغينية من عدم حماس قادتها لتزويد الطبقات العاملة والجماهير الشعبية بالمعلومات الأساسية عن الماركسية اللينينية وهو اجراء من الاجراءات الأولية فى أى نظام شيوعى .

وحول الايمان بالمطلق أو مكان القيم الروحية فى المجتمع يتخذ الافريقيون الماركسيون موقفا فريدا أيضا . ويحدد سيكوتوريه موقفه قائلا أنه بينما تنكر المادية الجدلية وجود الله فانه يندر أن نجد أى ملحد فى أفريقيا عامة وفى غينيا على وجه الخصوص . بل أن سيكوتوريه قد زار مكة بوصفه رئيسا لدولة أغلب سكانها من المسلمين .(٥٥)

هناك حدود فاصلة أيضا بين موقفى كل من الافريقيين الماركسيين والشيوعيين الملتزمين حول موضوعين حيويين هما دور المثقفين وخصوصية أوضاع وطبيعة أفريقيا . يعرب الأفريقيون الماركسيون عن ايمانهم بأهمية الدور الذى يقوم به المثقفون الافريقيون كرواد وقادة لحركة التحرير الوطنى فى القارة ، بينما يقلل الشيوعيون الملتزمون فى أفريقيا من دور الانتليجنسيا .

لكن الموضوع الذى تسود فيه خلافات عميقة فى الرأى بين التيارين هو طبيعة ظروف وأوضاع أفريقيا . فمن جهة يسلم الشيوعيون بخصوصية التطور

---

(٥٤) Ibid., p. 190 ; cf. Senghor, « Problematics of Négritude », Symposium, p. 33.

(٥٥) Laqueur, « Communism and Nationalism... », op. cit., pp. 190, 191.

التاريخى والأوضاع الراهنة فى القارة وان كانوا يؤكدون أن المبادىء الأساسية للماركسية اللينينية صالحة للتطبيق فى أفريقيا وأن تجاهلها سيؤدى الى انحرافات قومية خطيرة .

ومن جهة أخرى يتخذ الافريقيون الماركسيون موقفا انتقائيا من اللينينية فيتحمسون لبعض مبادئها ويضعونها موضع التطبيق بينما يعارضون باصرار بعضها الآخر . ويبنى هؤلاء معارضتهم على أساس أن الشيوعية بالشكل الذى نادى به ماركس فى كتاباته المبكرة كانت رد الفعل الطبيعى ضد النظام الرأسمالى الذى أدى بالانسان الى الاغتراب وحيث صارت الثروة المادية هى الخير الأسمى وفقدت القيم الروحية مكانتها .

يختلف الوضع فى أفريقيا اختلافا بينا عن هذه الصورة القاتمة . حقيقة أنها قارة متخلفة اقتصاديا ولكنها ليست مجتمعا تتجه فيه القيم نحو التحلل . وعلى العكس من ذلك تملك أفريقيا دفء المبادرة الانسانية وغناها وتلقائيتها التى يفتقر اليها كل من الغرب والشرق . ولعل هذه المعتقدات والثقة فى خصوصية وامكانيات أفريقيا هى التى أدت الى ظهور أفكار جديدة على المستوى الثقافى مثل فكرة الزنجية بينما انعكست على المستوى السياسى فى أفكار وحركات أخرى مثل فكرة الشخصية الافريقية وحركة الوحدة الافريقية .(٥٦)

استعرضنا فيما سبق الفروق الجوهرية التى تفصل بين من يسمون بالافريقيين الماركسيين من جهة وبين الشيوعيون أى الماركسيين التقليديين من جهة أخرى وذلك من حيث الاعداد النظرى والثورى ثم من حيث الآراء والمواقف الأيديولوجية . ولاحظنا أن الافريقيين الماركسيين يمثلون الغالبية العظمى ممن يمكن أن يطلق عليهم اسم اليسار .

يضم أفراد الفريق الأول من الافريقيين الماركسيين القادة اليساريون وأعضاء الجماعات اليسارية الذين رغم تبنيهم للقليل من الأفكار الماركسية

---

(٥٦) Ibid., p. 191.

والكثير من مصطلحاتها ظلوا وطنيين يساريين مؤمنين بحركة الوحدة الافريقية . وعلى الجانب الآخر لا يشكل الماركسيون التقليديون فى أفريقيا سوى أقلية ضئيلة سواء من حيث العدد أو النفوذ .(٥٧)

ويبدو أن أصحاب فكرة الزنجية فى حماسهم للدفاع عنها خلطوا بين التيارين ووجهوا نقدهم بالتحديد وفى أغلب الأحيان الى الفريق الأول من الزعماء الوطنيين الذين يطلق عليهم أحيانا اصطلاح الافريقيين الماركسيين من أمثال قادة غينيا والكونجو برازافيل وتانزانيا . وسنناقش فى الأسطر التالية بعض نماذج من هذا الخلط .

٤ ــ يدافع الرئيس سنجور عن فكرة الزنجية على أساس أنها حركة ثقافية تمثل بداية لنهضة أفريقيا مثلها فى ذلك مثل الحركات الثقافية الأخرى التى عرفتها بلدان عديدة فى أوروبا فى مستهل نهضتها . وهو لهذا السبب يعيب على الماركسيين نقدهم للزنجية ويتخذ من موقفهم منها قرينة على أنهم يحتقرون ثقافتهم الافريقية .

ولشرح وجهة نظره استشهد سنجور بثلاثة أمثلة من ألمانيا وسكاندينافيا وروسيا القيصرية . فى المانيا بدأت حركة التحرر فى منتصف القرن التاسع عشر حين توقف الألمان عن اتباع مدارس الفكر الأجنبية سواء كانت فرنسية أم بريطانية وقدم المثقفون لمواطنيهم شعرا شعبيا وأساطير المانية ساهم فيها عباقرة الفكر والشعر الألمانيين من أمثال جوته . (٥٨)

فى سكاندينافيا أدى الاحتلال والاذلال اللذين تعرضت لهما شعوبهما خلال الحروب النابوليونية فى أوائل القرن التاسع عشر الى البحث عن « روح الشمال » فى ثقافاتها المشتركة ، وعن تلك القيم التى قد تمكنها من بعث حضاراتها الشقيقة وخلق وحدة ثقافية وسياسية . ويؤكد سنجور على ملاحظة هامة هى أن الصحوة

(٥٧) Ibid., p. 195.

(٥٨) Senghor, « Problematics of Négritude », Symposium, pp. 38, 39.

الثقافية فى هذه الحالة ــ كما فى معظم الحالات ــ جاءت نتيجة للغزو أو المهانة التى أدى اليها وجود قوات احتلال أجنبية .(٥٩)

فى المثال الثالث يشير سنجور الى المقاومة الروسية للغزو الفرنسى فى أوائل القرن التاسع عشر أيضا وهى المقاومة التى أينعت ــ بعد طرد جيوش نابليون ــ على شكل حركة نهضة صقلبية ذات طابع فلسفى وأدبى تماما كما حدث فى سكاندينافيا . لقد كانت هذه الحركة الصقلبية هى المنبع الذى نهلت منه النهضة الثقافية فى روسيا القيصرية لتعطى روائعها فى كل ميادين الفكر والفن من فلسفة وأدب وموسيقى .

وتنبع الأهمية الخاصة لهذا المثال الثالث من رغبة سنجور فى الاعتماد عليه لادانة الافريقيين الماركسيين من حيث أن الاتحاد السوفييتى ــ رغم أنه الدولة الاشتراكية الأولى فى العالم ــ لم يتخل عن ثقافته الوطنية بعد تغير الظروف ونظام الحكم واعتناق أيديولوجية مختلفة تماما عن تلك التى كانت سائدة فى ظل النظام القيصرى . بمعنى أن السوفيت وان كانوا قد تجاوزوا الحركة الصقلبية فانهم لم يتنكروا للنهضة الثقافية التى نتجت عنها وظلوا صقالبة ليس من الناحية الفلسفية أو النظرية وانما من ناحية التصرفات والأفعال . أى أنهم استطاعوا فى رأيه التوفيق بين ولائهم لعنصرهم ولثقافتهم الوطنية وايمانهم بنص وروح تعاليم ماركس (٦٠) .

ينتقد أصحاب فكرة الزنجية الماركسيين أيضا لأنهم خلافا خلافا لما تقضى به تعاليم كل من ماركس ولينين فانهم يعطون الأولوية للاعتبارات الاقتصادية والسياسية فوق الاعتبارات الثقافية ، وللكم فوق الكيف ويخلطون بين النشوء والتطور وبذلك يفعلون كما يفعل الرأسماليون . فمثلا يستند سنجور الى آراء الماركسى الفرنسى هنرى ليفيفر ليدحض هذا الموقف انطلاقا من أن اعطاء

---

(٥٩) عز الدين فودة « مجلس الشمال » ، Ibid., pp. 39, 40.
فى : مجلة الاقتصاد والسياسة والتجارة ، القاهرة ، يناير ــ يونية ١٩٦٠ ، ص ٥٥ ، ٥٦

(٦٠) Senghor, « Problematics of Négritude », Symposium, pp. 40 - 42.

الأولوية للاعتبارات الاقتصادية والسياسية يؤدى الى بنيان اجتماعى محكوم عليه بالفشل . ان الاشتراكية نفسها يمكن أن تفشل اذا تبنت هذا النموذج ، وهو فشل ستنعكس آثاره فى تحلل العلاقات الاجتماعية (٦١) .

لقد فرق ماركس بين النشوء والتطور فى بحثه عن اغتراب العمل الانسانى وتوصل الى فكرة تقول أنه اذا ساعد النمو الاقتصادى على اشباع الحاجات الحيوانية للانسان ــ كالطعام والشراب والملبس والمسكن ــ فانه يظل مجرد وسيلة لبلوغ الهدف النهائى لهذا الانسان والذى يتجه كل نشاطه الى خلق أعمال فنية لتهذيب نفسه واخوانه فى الانسانية .

ان ما يميز هذه الأعمال الفنية بعد اعطائها لمسة انسانية هو جمالها : هو التطابق الذى يمكن ملاحظته فيها بين الانسان وعالمه ، بين الفرد والكل مما يؤدى الى أن الكون بأسره ينعكس فيه ويمكن قياسه بواسطة العمل الفنى للفرد . هذا التطابق هو ذو طبيعة روحية لأنه معيار كيفى وليس معيارا كميا .(٦٢)

يقدم سنجور رأى ماركس ليدلل على فشل الدكتاتورية وفشل الاتجاه السائد فى القرن العشرين لاعطاء الأولوية للاقتصاد والسياسة وهو ما يمكن التحقق منه على الفور فى الدول الشيوعية والفاشية والرأسمالية . ويتساءل : لماذا يثور الشباب فى كل النظم السياسية باسم الثقافة وباسم المطالبة بحق التمايز والاختلاف ؟ ثم يجيب بلسان هنرى ليفيفر بأن عودة التطور الى خطه الأصلى يعنى اثراء العلاقات الاجتماعية وهو تطور لا يمكن الا أن يكون كيفيا . فهو يفترض خلق أنماط للحياة الاجتماعية وطرق للمعيشة ومناهج للقيم والأفكار . وفى كلمة واحدة يفترض الاختلاف .

---

(٦١) Ibid., pp. 36, 37 ; A. S. Kane, « Penser et agir par nous-mêmes et pour nous en Négro-Africains », in : Le Soleil, op. cit., p. 5.

(٦٢) Senghor, « problematics of Négritude », Symposium, p. 37.

(٦٣) Ibid., p. 37.

تتردد نفس هذه الاتجاهات فى كتابات المدافعين عن فكرة الزنجية كما نلاحظ مثلا فى الرأى القائل أن أغلبية الأحزاب الافريقية بما فيها الاتحاد التقدمى السنغالى قد اختارت نوعا من الاشتراكية مغاير لما يؤمن به كثير من الماركسيين اذ أنها اشتراكية لا تعطى الأولوية للمادية وانما للانسان بصفته هدف كل تطور . ويصل أحد هذه الآراء الى حد القول بأن السنغال تبنى اشتراكية من نوع خاص تقوم على الأسس الافريقية الزنجية وتستلهم « تعاليم ماركس وانجلز » مع الاستعانة بآراء وتجارب اشتراكية أخرى لاثرائها وتفادى عيوب الحضارة الصناعية وخاصة من حيث انكار القيم الروحية وعدم احلال الانسان فى المحل الأول .(٦٤)

ورغم الغموض الذى يكتنف كتابات ليوبولد سنجور أحيانا فاننا يمكن أن نتبين فيما يلى حالة نادرة من الحالات التى نستطيع فيها معرفة أى نوع من الماركسيين الافريقيين يعنيه عند توجيه نقده ربما لأنه أشار بصراحة الى آراء الزعيم الصينى ماوتسى تونج .

ففى اشارة واضحة الى الاضافات التى أدخلها على الماركسية امتدح سنجور ماو لاستقلاليته ورفضه اتباع النموذج السوفيتى وذلك باتخاذه موقفا من لينين الروسى الأصل مماثل لموقف هذا الأخير من كارل ماركس الألمانى .

ان ما يلفت نظر سنجور فى التجربة الصينية هو أن ماو استطاع أن يظل أمينا لتعليم ماركس وذلك عن طريق حمل مواطنيه على التفكير بحرية وبلا عقد فى الماركسية اللينينية . ويعلق على ذلك بقوله أن فردريك انجلز سبق أن قال أن الماركسية ليست مبدأ جامدا وانما هى منهج أو طريق وهى ليست كذلك قالبا لأن القالب بصفته شكلا من أشكال تسلط الجهاز السياسى المتخصص ظهر بعد ماركس ولينين ، وهو لهذا ليس تصورا ماركسيا .

(٦٤) Alioune Sene, « Négritude et Politique », Symposium, p. 19 ; A. Diouf, « Négritude and Development », pp. 14. 15 ; Seydou Madani, « Négritude et Droit Moderne », p. 37, all in Symposium.

هذا هو السبب فى الانقسامات بين المـاركسيين حيث أن القـالب يدعو الى نموذج معين من النمو وفقـا لمطالب الاستراتيجية والسلطة . كما أنه متطابق بالنسبة للجميع ويفرض التماثل أو التظاهر به ويستغل الجماهير ويسمح بارهابها. وليس كذلك المنهج المـاركسى الذى لا يفرض وانما يقترح .(٦٥)

ويختتم سنجور نقـده للماركسيين التقليديين فى أفريقيا بقوله أن الأسلوب الصحيح والوحيد للتعبير عن الايمان بالمـادية هو رفض قالب صينى لافريقيا والبحث بنفس أسلوب ماو عن قالب من نوع خاص يلائم افريقيا السـوداء . فليس المطلوب تعـديل المـاركسية وانما أن يعيد الشعب الأسود التفكير فيها وفقا لقيمه الزنجية .(٦٦)

اذا أردنا ايجاز أهم أوجه النقد التى يوجهها أصحاب مدرسة الزنجية الى الافريقيين المـاركسيين بصفة خاصة فاننا نجد أنه انطلاقا من اعتقاد أصحاب تلك المدرسة بأن الزنجية حركة ثقافية وبداية لنهضة أفريقيا ـ مثلها فى ذلك مثل الحركات الثقافيـة فى أوروبا ـ فانهم يعيبون على الافريقيين المـاركسيين احتقارهم لثقافتهم الافريقية وأنهم يعطون الأولوية للاعتبـارات الاقتصـادية والسياسية فوق الاعتبارات الثقافية والكم فوق الكيف ، وأنهم ينكرون القيم الروحية وأهمية احلال الانسان فى المحل الأول .

ونظرا لأن زعماء غينيا يعتبرون فى نظر أصحاب تلك المدرسة ـ وغيرهم من الليبراليين فى الغرب ـ من أكثر الزعماء الافريقيين الماركسيين تطرفا كما أن غينيا نفسها تعتبر فى تقدير كل من الغرب والشرق من أكثر الدول الافريقية تقاربا وارتباطا بالمعسكر الاشتراكى ، فانه قد تكفى اشارة سريعة الى بعض الحقائق والملاحظات التى أوردناها أعلاه للتثبت من مدى صحة أوجه النقد الموجهة الى الافريقيين الماركسيين بصفة عامة وليس فى غينيا أو الكونجو برازافيل فقـط .

---

(٦٥) Senghor, « Problematics of Négritude », Symposium, pp. 44, 45.

(٦٦) Ibid., p. 45.

لقد أكد الرئيس أحمد سيكوتوريه أكثر من مرة ايمانه باشتراكية أفريقية متميزة تتلاءم مع الظروف الخاصة لافريقيا المستقلة ولا تقبل أى تدخل من الخارج . ان عدم سماحه لحزبه الحاكم باتتهاج خط أيديولوجى شيوعى مع عدم السماح أيضا بتأسيس حزب شيوعى مستقل فى غينيا وتأكيده على الاستقلال الفكرى للتجربة الغينية وعدم تثقيف الجماهير والطبقات العاملة بثقافة ماركسية ورفض المادية الجدلية وتأكيد ارتباط التجربة الغينية بالقيم الروحية كل هذا لا يفند فقط الاتهامات الموجهة اليهم بانكار تلك القيم وانما يثبت أيضا أن النقـد الآخر القائل باحتقار الثقافة الافريقية هو اتهام لا يمكن أخذه على محمل الجد

وليس معنى نقد بعض الزعماء الافريقيين لفكرة الزنجية هو التنكر لافريقيا ولقيمها والا لتحول الأمر الى نوع من الارهاب الفكرى مشابه لذلك الذى تمارسه اسرائيل ضد المثقفين الأحرار فى أوروبا الذين تتهمهم بانلا سامية اذا تجرأوا على نقد فكرة الصهيونية . وشتان بين العداء لليهودية كدين أو مجموعة صفات لجماعة بشرية معينة وبين العداء للصهيونية كفكرة عنصرية عدوانية . وقد فطن الى هذا التشابه المؤرخ الأمريكى جون هوب فرانكلين الذى سمى حركة الزنجية فى مراحلها الأولى « بالصهيونية الزنجية » بسبب اللهجة العنصرية التى كان يستعملها ماركوس جارفى أحيانا فى التحدث عن الزنوج وبسبب شعار العودة الى أفريقيا(٦٧) .

بالمثل نلاحظ أن أوجه النقد الأخرى لا تقوم على أساس موضوعى وذلك اذا أخذنا فى اعتبارنا موقف من يسمونهم بالافريقيين الماركسيين من موضوعى المثقفين وخصوصية أفريقيا . فانكار الدور القيادى للطبقة العاملة والتأكيد على الدور القيادى للمثقفين لا يدع مجالا للشك فى طبيعة النظم الافريقية بصفتها نظم حكم وطنية قبل كل شىء وليست ماركسية .

---

(٦٧) Chancellor Williams, « Pan-Asiatic and Pan-African Movements », in : Contemporary Political Ldeologies op. cit., p. 27.

كما أن الاطناب فى الحديث عن عدم اغتراب الانسان الافريقى ، وسيادة جانب كبير من القيم التقليدية التى لا تمجد الاتجاه المادى ، ثم الاقتناع بدفء المبادرة الانسانية وغناها وتلقائيتها كل ذلك لا يتفق مع النتيجة التى خرج بها أصحاب مدرسة الزنجية بأن الافريقيين الماركسيين يعطون الأسبقية للاعتبارات الاقتصادية والسياسية على الاعتبارات الثقافية وأنهم لا يضعون الانسان فى المحل الأول من الاهتمام والاعتبار(٦٨) .

ان التسميات التى تطلق على الزعماء الوطنيين من أبطال حركة التحرر الوطنى فى أفريقيا هى تسميات غير دقيقة جاءت نتيجة تطبيق بعض هؤلاء الزعماء للقليل من الأفكار والأساليب الماركسية والكثير من مصطلحاتها ولغتها . وما اطلاق اسم الافريقيين الماركسيين على هؤلاء الزعماء ــ فى رأينا ــ الا من قبيل النسبية وخاصة اذا قورنت سياساتهم التحررية بمواقف وسياسات زعماء آخرين فى القارة من أمثال هاستنجزباندا رئيس مالاوى .

٥ ــ للماركسيين التقليديين فى أفريقيا مآخذهم هم الآخرين على الأوضاع فى القارة وعلى الأفكار والآراء السائدة والاحتمالات التى يمكن أن يتخذها مجرى الأحداث . ويتبلور نقدهم أساسا فى الموقف الذى يتخذونه من البرجوازية الوطنية وكذلك فى موقفهم من البرجوازية الصغيرة التى استطاع بعض أفرادها الوصول الى الحكم فى كثير من الدول الافريقية وخاصة هؤلاء المتأثرين بفكرة الزنجية .

تشكل البرجوازية الوطنية فى نظرهم مشكلة كبيرة لأن زعماء تلك الطبقة غير جديرين بالثقة ومعارضتهم للاستعمار غير حقيقية ، كما أنهم لا محالة مقدمون على خيانة القضية الوطنية ان آجلا أو عاجلا . يستند الماركسيون التقليديون فى حكمهم هذا الى طبيعة البرجوازية الوطنية كطبقة غير قادرة على الصراع المستمر ضد الامبريالية وتميل بطبيعتها الى عقد الصفقات والتعاون معه . وحتى فى الدول التى استطاعت البرجوازية الوطنية فيها تحقيق الاستقلال فانهم

(٦٨) قارن أعلاه ص ٣١ ، ٣٢

يتشككون فى صحته ويعتبرونه محاولة لفرض شكل جديد من الحكم يتيح استمرار الارتباط بالامبريالية[٦٩] .

كان هذا هو الموقف حتى عام ١٩٥٥ . أما بعد ذلك وخاصة بعد مؤتمر باندونج فان الماركسيين التقليديين أدخلوا تعديلا على موقفهم من أفريقيا على أساس أن العدو الأساسى هو الاستعمار الغربى الذى يجب الاستفادة الى أقصى حد ممكن من المشاعر المعادية له فى القارة .

لكن ذلك لم يغير موقفهم بشكل جذرى من البرجوازية الوطنية التى استمر النظر اليها على أنها غير كفء لقيادة الحركة الوطنية لأنها « طبقة أنانية محافظة لا تسترشد فى تحركاتها بمصالح الجماهير وانما بمصالحها الطبقية الضيقة كأقلية . وهى تفتقر الى الرؤية الواضحة وتميل الى التعصب والانتهازية . ويأتى استعدادها للتضحية بالمبادىء ومهادنة الاستعمار من خوفها من النشاطات الثورية لجماهير الطبقة العاملة والفلاحين » . ويذهب هذا النقد أحيانا الى درجة اتهام البرجوازية الوطنية بأنها تمثل قوى الثورة المضادة ضد الاشتراكية فى أفريقيا[٧٠].

أما البرجوازية الصغيرة فان الماركسيين التقليديين يتخذون منها موقفا حذرا نظرا لأن أغلب القادة الوطنيين فى القارة ينتمون الى هذه الطبقة وهم الذين يطلق على اليساريين منهم مجازا اصطلاح الافريقيين الماركسيين كما أشرنا من قبل .

وخلافا لموقف هؤلاء من المثقفين والأمل الكبير الذى يعلقونه على قيادتهم ولحركة التحرير الوطنية والاستيلاء على مقاليد السلطة بعد الاستقلال فاننا نجد أن موقف الماركسيين التقليديين من المثقفين مغاير لذلك تماما انطلاقا من نظرتهم اليهم كعناصر تنتمى الى البرجوازية الصغيرة .

---

(٦٩) W. Z. Laqueur, « Communism and Nationalism in Tropical Africa », in : Africa, op. cit., p. 193.

(٧٠) N. Numade, « Marxism and African Liberation » ; F. Kumalo, « Socialism in Africa », both in : The African Communist, London, April 1960, Jan. 1961 respectively, quoted by Laqueur, op. cit., pp. 193, 194.

لهذا فهم يرون أن المثقفين فئة مترددة تتذبذب باستمرار بين المستغلين والمستغلين أى يشغلون مركزا وسطا بين الحكام والمحكومين ، بين البرجوازية والبروليتاريا . فالمثقفون اذن كجماعة عبارة عن فئة غير مستقرة لا تصلح للقيادة وبالتالى لا يمكن الاعتماد عليها ما لم تنضم الى الحركة الشيوعية(٧١) .

ورغم هذا النقد للمثقفين الذين ينتمون الى البرجوازية الصغيرة فانه يمكن أن تتبين بوضوح اختلاف موقف الماركسيين التقليديين من فئتين من هؤلاء المثقفين . وبالنسبة للفئة الأولى التى تضم المثقفين اليساريين من أمثال سيكوتوريه والرئيس الراحل نكروما ومودیبوكيتا وأوجنجا أودنجا نلاحظ أنهم يعترفون بالدور الكبير الذى قاموا به كمؤسسين لحركة التحرير الوطنى وحاملى قبس الثورة والمعرفة من أقصى القارة الى أقصاها .

وعلى العكس من ذلك موقفهم من المثقفين اليمينيين من الفئة الثانية من أمثال سنجور ومامادوضيا والزعيم الراحل توم مبويا الذين كالوا لهم نقدا مرا أشرنا الى أهم جوانبه فى الأسطر السابقة(٧٢) .

وقد وجد الماركسيون التقليديون ـ يشاركهم فى ذلك الى درجة ما الافريقيون الماركسيون فى آراء تلك الفئة الثانية من المثقفين مجالا خصبا للنقد وخاصة ما تعلق منها بأفكار الزنجية وتقسيم القارات والأمم الى برجوازية وبروليتارية وهو الاتجاه الذى يبدو فى كثير من الكتابات الاقتصادية والسياسية المعاصرة ذات الطابع الليبرالى والتى تقسم العالم الى شمال غنى وجنوب فقير .

ووجه اعتراض الماركسيين التقليدين على هذا الاتجاه الأخير هو أنه من ناحية يعتبر انعكاسا بشكل ما لآراء السلطان جاليف(٧٣) . ومن ناحية أخرى هو تعبير عن تأثر تلك الفئة من المثقفين الافريقيين بتجربتهم مع العالم الرأسمالى من حيث اقتناعهم بأن المشاكل السياسية الدولية لها طابع عنصرى . وتأسيسا

---

(٧١) Ibid., pp. 194. 191.

(٧٢) Ibid., p. 194.

(٧٣) انظر أعلاه ص ٣٠

علىذلك يسيلون الى النظر الى أفريقيا على أنها البروليتاريا بينما تمثل أوروبا البرجوازية ، وبالتالى يضعون عمال أوروبا والرأسماليين المستغلين فيها على قدم المساواة مما يخرق مبادىء الأممية البروليتارية(٧٤) .

بالمثل يعترض الماركسيون التقليديون على فكرتى الزنجية والوحدة الافريقية على أســاس أنهما تعبران عن انحرافات قومية رومانسية للطبقة البرجوازية الصغيرة . الا أن المشكلة التى يواجهونها فى هذا الشأن هى أنهما ــ وخاصة فكرة الوحدة الافريقية ــ تجسدان آمالا عريضة فى جميع أنحاء القارة وتتجاوزان الحدود والفواصل اللغوية والعرفية والجغرافية والدينية ، كما أنه من شــأن معارضتهم تلك أن تضعهم فى مواجهة مباشرة مع أغلب القادة السياسيين والمثقفين فى أفريقيا الذين يؤمنون بدرجات متفاوتة بهاتين الفكرتين(٧٥) .

(٧٤) W. Z. Laqueur, « Communism and Nationalism in Tropical Africa », in : Africa, op . cit., p. 188.

(٧٥) Ibid., p. 191.

خاتمـــة

ودعوة الى استكمال البحث

١ ــ درسنا بعض السمات الأيديولوجية الهامة للزنجية وأشكال العلاقات المتبادلة بينها وبين النظريات السياسية الرئيسية المعاصرة مع الاشارة الى بعض الاعتبارات الحيوية التى تباشر تأثيرها على تلك العلاقات . وقد انتهينا الى أن الزنجية كفكرة وكحركة هى تجسيد لثورة الرجل الأسود داخل أفريقيا وخارجها ضد الاستغلال الاقتصادى والامتهان المعنوى الذى تعرض له على يد الاستعمار الغربى .

يعانى الزنوج من الرفض فى المجتمعات البيضاء أو فى المجتمعات المتعددة السلالات ليس فقط بسبب لون بشرتهم كما يحاول اقناعنا كتاب الزنجية وانما أيضا بسبب الرغبة فى ابقائهم فى أدنى درجات السلم الاجتماعى كمصدر رخيص للقوة العاملة .

وقد تكون الزنجية مظهرا من مظاهر تحدى هذا الرفض والتصالح مع الذات ووضع حد للقهر المعنوى الذى وصل بالزنوج الى حد النظر الى أنفسهم من خلال المعيار المتعصب الذى ينظر به اليهم السيد الأبيض . ولكن هـــذا ليس مبررا للوقوع فى نفس خطأ السيد الأبيض وتنظير رد الفعل على هيئة عنصرية مضادة تصل فى هوسها الى درجة العقيدة مثلما حدث بالنسبة للأيديولوجية الصهيونية واتجاهاتها العنصرية الجامحة كرد فعل فج وغير واع للا سامية .

تتعرض فكرة الزنجية للادانة من منطلقات متباينة وفى أجزاء مختلفة من القارة . ففى جنوب أفريقيا يسود الاعتقاد بين المثقفين الزنوج بأن الفن الافريقى الجديد سينبعث من مادة الحياة نفســها وليس من أية عقدة بالتفرد والتميز أو الاختلاف العنصرى . وفى غرب أفريقيا وخاصة فى غانا وغينيا والكونجو برازافيل يوجه النقد الى الزنجية لصوفيتها واغراقها فى الجانب غير العقلانى للشخصية والأوضاع الافريقية .

وبالمثل فان العرب فى شمال القارة يشاركهم فى ذلك بعض الافريقيين الزنوج الناطقين بالانجليزية أبدوا عدم ارتياحهم لاتجاهها السلبى لأنها باصرارها على عامل اللون تزيد من انقسام أفريقيا فى وقت تسعى فيه القارة نحو تحقيق وحدتها والتجاوز عن الاختلافات العديدة بين شعوبها وان كان الرئيس السنغالى ليوبولد سنجور قد دافع عن الزنجية بقوله أن المقصود هو الأفريقانية بمعناها الموضوعى أى التكافل الجدلى بين العروبة والزنجية .

قد تفسر تلك العوامل مجتمعة ــ وخاصة ما تعلق منها بتحدى الرفض والتصالح مع الذات والشعور بالضيق ازاء النقد الافريقى للفكرة ــ ما نلاحظه من حماس زائد من جانب مفكرى الزنجية يدفعهم الى اتهام منتقديها بكنايات ولافتات لم تثبت المواقف السياسية أو التطورات الواقعية صحتها .

من أمثلة ذلك وصفهم للزعماء الوطنيين فى أفريقيا بأنهم ماركسيون واتهامهم بالتغاضى عن احلال الانسان فى المحل الأول من الاهتمام واغفال القيم الروحية واحتقار الثقافة الوطنية . ان اسراف مفكرى الزنجية فى توزيع الكنايات والأوصاف على الزعماء الوطنيين المناهضين للاستعمار ولآرائهم فى الزنجية يجعلهم يبدون كمدافعين عن الفكر الليبرالى أكثر من الليبراليين الغربيين أنفسهم مثل وولتر لاكير الذى حذر من الخلط فى الحكم على حقيقة الاتجاهات الأيديولوجية والأوضاع السياسية فى أفريقيا .

ويبلغ الخلط أقصاه عندما يؤكد كتاب الزنجية ــ وهم الذين يتبنون المواقف الليبرالية من الصراع الأيديولوجى والسياسى فى القارة ــ أن السنغال اختارت نوعا من الاشتراكية مغاير لما يؤمن به الماركسيون وأنها استلهمت فى ذلك « تعاليم ماركس وانجلز » مع الاستعانة بالتجارب الاشتراكية الأخرى وتفادى عيوب الحضارة الصناعية .

يضاف الى ذلك أن الزنجية بدعوتها لاتباع فلسفة وسياسات أفريقية مستقلة لا تقدم جديدا ولا تفضل غيرها من العقائد والاتجاهات السائدة فى القارة . وحتى الزعماء الوطنيون اليساريون الذين يطلق عليهم أحيانا الافريقيون الماركسيون يتمسكون باستقلالهم الفكرى والعملى . ورغم علاقاتهم الوثيقة

بالمعسكر الاشتراكى وتلقيهم مساعدات ضخمة منه فانهم لا يجدون حرجا من المجاهرة فى كل مناسبة برفض الاشتراكية التقليدية كطريق محتمل لافريقيا .

٢ ــ لكن دراستنا هذه لم تقدم ولا تستطيع أن تقدم ــ الآن على الأقل ــ ردودا على الأسئلة التى سنوردها فى الأسطر التالية اذ أنه لا يكفى فى رأينا وجود تصور ولو كان شبه كامل لما يمكن أن يكون عليه منهج بحث فكرة الزنجية التى تستلزم أولا اجراء دراسات تحليلية ونقدية فى فروع أخرى من العلوم والآداب والفنون التشكيلية حتى تكتمل الصورة ويتوفر الأساس المتين لاستكمال تلك الدراسة .

عندئذ فقط يمكن أن تقوم جماعة بحث بجهد مشترك من أجل وضع دراسة علمية للزنجية ليس فقط من الناحية الأيديولوجية كما فعلنا فى هذه الورقة ، وانما دراسة تغطى الجوانب الهامة الأخرى للزنجية كنظرية متكاملة . وفيما يلى بعض الأسئلة التى نرى أن الرد عليها أساسى للتمهيد لمثل هذه الدراسة واختبار مدى ارتباط وتفاعل فكرة الزنجية بالواقع الافريقى ومدى جدواها لمستقبل أفريقيا .

ــ هل لعبت الزنجية دورا ما كسلاح فى حركة التحرير الافريقية أم كان شعار الحرية « أوهورو » هو القاسم المشترك بين الحركات الوطنية فى القارة ؟

ــ هل هيأت الزنجية التربة الافريقية أيديولوجيا قبل الاستقلال ؟

ــ هل صار الأدب والفن المنبثقان عن الزنجية معبرين عن المشاكل الملحة لافريقيا السوداء بعد الاستقلال أم صارا معبرين عن مصالح الطبقة الجديدة المسيطرة فى أجزاء كثيرة من القارة ؟

ــ هل نجحت الزنجية فى تحقيق وحدة خلاقة بين السياسة والفن ،بين المحتوى والشكل أى بين المحتوى السياسى وبين أعلى مستوى ممكن من الابداع الفنى ؟

ــ هل يمكن قياس مدى تطور فكرة الزنجية نتيجة للممارسة العملية للشعوب الافريقية السوداء ؟ ثم هل استطاعت هذه الفكرة بدورها أن تخدم تلك الممارسة العملية ؟

ان دراسة متأنية لكافة الأوضـــاع فى السنغال بالذات تبدو ضرورية ليس فقط لأن زعماء الطبقة الحاكمة هناك يعتبرون من أبرز المدافعين عن فكرة الزنجية وانما الأهم من ذلك لأن جمهورية السنغال حصلت على استقلالها منذ عام ١٩٥٨ . وبالتالى يمكن قياس مدى تطبيقها لتلك الفكرة فى مجال الواقع خاصة وان كتابات مفكريها تظهر أن الزنجية ترقى لديهم الى مرتبـــة الأيديولوجيـــة الرسمية للدولة . فهناك بحوث ودراسات عن علاقة الزنجية بكافة أوجه الحياة من اقتصاد وقانون واصلاح زراعى وآداب وفنون وفلسفة ودين .

ان مثل هذه الدارسة المتأنية القائمة على الاحصاءات العلمية والنماذج الفنية هى التى يمكن أن تكشف مدى تقدم الســـنغال فى ظل تطبيق أيديولوجية الزنجية . هذا التقدم يمكن أن يكون معيارا لمدى جدية هذه الأيديولوجية ومدى صلاحيتها ـــ كما يقولون ـــ للنهوض بالثقافة الافريقية والحياة الاجتماعية بوجه عام .

٣ ـــ تستند دعوتنا لدراسة أوسع لفكرة الزنجية الى عدة اعتبارات أولها أن هذه الفكرة تعتبر دليلا هاديا لعدد من زعماء أفريقيا ولعدة ملايين من مواطنيها مما يحتم علينا بذل جهد أكبر من أجل تعميق فهمنا لأسلوب تفكيرهم وللقيم الأثيرة لديهم . ومن الجلى أن هذا سيساعدنا كثيرا على تحقيق مزيد من التعاون المثمر مع الدول الخاضعة لتأثير هذه الفكرة . واذا أضيف هذا التعاون الى الأسس الحضارية المشتركة وعوامل الالتقاء الطبيعية بيننا وبينهم فان النتيجة ستكون رصيدا ايجابيا وفعالا فى صراعنا ضد التغلغل الصهيونى فى أفريقيا .

الاعتبار الثانى هو ضرورة زيادة الانفتاح الحضارى على أفريقيا السوداء . ونظرا لما للثقافة من وضع خاص فى هذا المجال فانه لا يبدو من المنطقى أن تخلو المكتبة العربية حتى الآن من مرجع علمى واف يبحث ويحلل فكرة الزنجية من وجهة نظر مصرية فى الوقت الذى سبقتنا فيه بعض الدول الافريقية ولا نقول الأوروبية الى عمل دراسات حديثة عن مصر والعالم العربى .

ان نشر الثقافة الافريقية على أوسع نطاق بين مثقفينا وتعريفهم بأسس فكرة الزنجية ــ وغيرها من الأيديولوجيات التى تسيطر على عقول الشعوب الافريقية وزعمائها ــ لا يستهدف فقط المتعة الثقافية والفنية وانما يستهدف أيضا وبشكل أساسى زيادة الروابط الانسانية والحوار بيننا وبينهم فى كافة المجالات بما يكفل ممارسة تأثير ثقافى بل وسياسى أيضا قد يؤدى على المدى الطويل ابى القضاء على السمات العنصرية للزنجية ودفعها بشكل أقوى الى الخط الثقافى والسياسى للدول الافريقية المتحررة .

المراجـــع

ملحـــوظة :

لا يوجد بالقاهرة ـ فيما نعلم ـ مراجع باللغـة العربية حول موضـوع الزنجية سوى المحاضرة التى نشير اليها فيما يلى والتى القاها الرئيس السنغالى سنجور بمناسبة منحه درجة الدكتوراه الفخرية فى الآداب .

ليوبولد سيدار سنجور ، أسس الافريقانية ، أو الزنجية والعروبة ، محاضرة القيت فى جامعة القاهرة ، ١٦ فبراير ١٩٦٧

Davidson, Basil — Which Way Africa ? The Search for a New Society, Middlesex, England 1964.

Diouf, Abdou — « Negritude and Development », in : Symposium on Negritude, Dakar, Senegal, 12-17-Avril 1971, hereunder referred to as Symposium.

Henry, Paul-Marc — « Pan-Africanism : A Dream Come True », in : Philip W. Quigg, ed., Africa, A Foreign Affairs Reader, New York 1964.

Irele, Abiola — « Négritude et African Personality », Symposium.

Laqueur, Walter Z. — « Communism and Nationalism in Tropical Africa », in : Ph. W. Quigg, ed., Africa.

Legum, Colin — Pan-Africanism, A Short Political Guide, New York 1965.

Madani, Seydou — « Négritude et Droit Moderne » Symposium.

Roucek, Joseph S. — Contemporary Political Ideologies, New Jersey 1961.

Sene, Alioune — « Négritude et Politique », Symposium.

Senghor, Leopold S. — « What is Négritude » ? in : Paul Sigmund, ed., The Ideologies of The Developing Nations New York, 1963.

« Problematics of Négritude », Symposium.